الباب الرابع

في العقائد والأديان

تمهيد

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً حول الأديان والعقائد التي كانت سائدة في عصر النبي (ص) وبيئته، وهذه الآيات وان كانت في صدد تفنيد الأديان والعقائد الباطلة، ومجادلة اصحابها وتقريعهم واقامة الحجة عليهم، ولفت نظرهم الى ماهم عليه من سخف، والى مافي أصرارهم على الباطل من بعد عن محجة العقل والمنطق، ثم في صدد تصحيح العقائد التي كان عليها الكتابيون، ومحاجتهم في ماهم فيه من انحراف، وإقرار للامور في نصابها الحق، فان فيها صوراً كثيرة للعقائد والافكار الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر والبيئة.

وقد عقدنا الباب على العقائد والأديان لأنهما متلازمان من ناحيه وبينهما بعض الفروق من ناحية اخرى. فالدين هو الايمان بمعبود ما والاتجاه اليه، والعقيدة تشمل الدين بالمعنى المتقدم، وتشمل التقاليد والأفكار وخاصة الدينية منها الراسخة رسوخاً شديداً، هذا بقطع النظر عما يمكن ان تتناوله الكلمتان من معان اخرى لا نرى ضرورة هنا الى التبسط فيها.

وبحثنا في هذا الباب سيتناول وصف وتصوير ما كان من اديان وعقائد وافكار وتقاليد دينية أو تمت الى الدين بمعنى من معانيه ، كما سيتناول اليهودية والنصرانية وما كان لهما من اثر وانتشار في عصر النبي (ص) وبيئته ، وما كان يجرى حولهما وفي صددهما من جدال وحجاج . اما العقائد الاسلامية فانها خارجة عن نطاق الكتاب ، ولن يتناول البحث منها الا ما كان بينه وبين ماقبل البعث من لحمة وثيقة قد لا يكون غني عن الاشارة اليه كما فعلنا في الفصول السابقة .

ولما كان بحث الحج والاشهر الحرم وتقاليدها قد دخل في باب الحياة الاجتماعية فقد اكتفينا بذلك ولم نعد اليه في هذا الباب .

وهكذا سيكون الباب محتويا الفصول الآتية :

١ — الشرك وما ينطوي فيه من عقائد ومظاهر

٢ — المعبودات المادية أو الوثنية

٣ — الملائكة في القرآن وعقائد العرب فيهم

٤ — الجن في القرآن وعقائد العرب فيهم

٥ — اعتراف العرب بالله وتمنيهم بعثة نبي فيهم

٦ — طبقة الحنفاء او الصابئين

٧ — اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما واثرهما

٨ — الطقوس والعادات والافكار الدينية المتنوعة الاخرى

الفصل الأول

الشرك وما ينطوي تحته من عقائد ومظاهر

الشرك عقيدة العرب العامة — مدى هذه العقيدة ومظاهرها — انواع الشرك والشركاء — مدى تعابير الأولياء والشفعاء والشهداء — رجال المشركين الدينيون. رسوخ عقيدة الشفاعة والشفعاء — مدى تعابير الشركاء والأرباب والأنداد والآلهة عند المشركين — تحليلات وتعليلات لتعدد مسميات الشركاء ومدى مدلولاتهم — مظهر خطوة تطورية دينية — تعليلات وتحليلات لتعدد الشركاء — صورة مقاربة لما كان عليه الحال في صدد تعدد الشركاء — بحث في عقيدة العرب باتخاذ الله ولداً — صورة طريفة في مجادلة المشركين عن عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله .

— ١ —

إن كلمة الشرك ومشتقاتها ومدلولاتها قد وردت كثيراً جداً في القرآن ، بحيث يستطاع القول إن « الشرك » هو العقيدة العامة التي كانت تسود العرب في بيئة النبي (ص) وعصره ، بل يصح ان يقال إنها كانت العقيدة العربية المحلية .

فأكثر الآيات التي تضمنت الدعوة الى الاسلام او التي خوطب بها غير المسلمين — عدا الكتابيين — او وجهت الى الناس او بالأحرى الى العرب لأنهم اول ناس خوطبوا بها في صدد تلك الدعوة تحتوي ما يمت الى موضوع الشرك ومدلوله بسبب ؛ سواء أكان ذلك في سياق الدعوة الى ذلك ، أم الجدل حول ما عليه الناس او العرب من عقائد ، او التنديد بهم والتسفيه لهم لاشراكهم مع الله آلهة اخرى ، ودعاء مادون الله و تخاذ الأولياء والشفعاء الخ .

واطلاق كلمة « الشرك » ومشتقاتها مثل « المشركين » و « الذين اشركوا » و « الشركاء » و « الشريك » في الآيات يتناول كفار العرب في الأعم الأغلب مترافقاً في المكية منها مع الجدل والتنديد والتحدي والانذار ، وفي المدنية منها مع

العنف والزجر والدعوة الى القمع والبراءة، مما يتسق مع طبيعة عهدي مكة والمدنية كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون ... الأنعام ١٣٦

٢ — أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يُخلقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون ... الأعراف ١٩١-١٩٣

٣ — ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً . ورأى المجرمون النار فظنوا (١) أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً الكهف ٥٢-٥٣

٤ — سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين. ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بأذنه ... آل عمران ١٥١-١٥١

٥ — فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون ... التوبة ٥-٦

٦ — يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... التوبة ٢٨

— ٢ —

ومدلول الشرك هو «إشراك» مادون الله مع الله في الالوهية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن أن يفهم من معنى الكلمة ومن الآيات المكية التي نقلناها آنفاً ومن آيات كثيرة اخرى منها هذه الآيات :

(١) هنا بمعنى « ايقنوا » وقد ورد بمعنى اليقين في بضع آيات قرآنية .

١ — سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ... الأنعام ١٤٨

٢ — وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ... النحل ٣٥

٣ — وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون .. الزخرف ٣٠

وهذا المدلول يسوغ القول ان كلة « الشرك » لاتعني نوعاً محدداً من العقائد ، وانها كلة عامة يمكن ان ينطوي فيها عقائد متنوعة ، قد تكون احياناً مختلطة ومتداخلاً بعضها في بعض ، يجمع بينها ضابط عام وهو إشراك مادون الله مع الله سواء أكان هذا « الدون[1] » وثناً ام ملكاً ام شيطاناً ام قوة من قوى الطبيعة ، وسواء أكان ذلك الاشراك في الألوهية ام الربوبية ام العبادة والطقوس ام بقصد الاستشفاع والزلفى .

فالذي يتمعن في الآيات يجد أن بعض الآيات عنت بالشرك إشراك مالا يعقل ولا يسمع ولا يملك شيئاً مع الله في العبادة والاتجاه والدعاء :

« والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون . الاعراف ١٩٧-١٩٨

وأن بعضاً آخر عنى إشراك الملائكة والجان مع الله :

١ — وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ... الأنعام ١٠٠

٢ — ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا

---

(١) هذا اللفظ بمعاني « غير » و « تحت » و « الأسفل » و « الأقرب » وقد ورد في الآيات القرآنية التي تحتوي الاشارة الى الشركاء والأولياء والآلهة وعني به « غير الله » و « من هم من دون الله » اقرأ تفاسير الطبري والرازي والخازن مثلاً في تفسير الآية (٢٣) من البقرة .

سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون... سبأ ٤٠-٤١

وأن بعضاً آخر يدل على أن الشرك كان يجمع بين الاعتراف بالله كآله اعظم وبين عبادة الملائكة كشفعاء، مع جعل الأوثان رموزاً مادية لهؤلاء وهو ماعنيناه بكامتي الاختلاط والتدخل :

١ — ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... يونس ١٨

٢ — قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ... يونس ٣١

٣ — والذين اتخذوا من دونه اولياء[1] مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ... الزمر ٣

٤ — افرأيتم اللاة والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى[2] ... النجم ١٩-٢٢

— ٣ —

وقد عبر عن الشركاء في الآيات تعبيراً متنوعاً او متعدداً . فذكروا في بعضها باسم « الشركاء » كما جاء في آيات الأنعام ١٣٦ والكهف ٥٢ والأنعام ١٠٠ التي نقلناها قبل قليل ، وذكروا فى بعضها باسم « الأنداد » :

« وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار... ابراهيم ٣٠

وذكروا في بعضها باسم الآلهة :

١ — قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً ... الاسراء ٤٢

٢ — أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ... الأنبياء ٢٤

---

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها : ويقولون (٢) اللاة والعزى ومناة اصنام وقد أنثوا اسماءها لأنها رموز الملائكة الذين كانوا يعتقدون انهم بنات الله .

وذكروا في بعضها باسم « الأرباب » :

« يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ... يوسف ٣٩

وذكروا باسم الشفعاء في آية يونس (١٨) التي نقلناها آنفاً .

وذكروا باسم الشهداء :

« وادْعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ... البقرة ٢٣

وذكروا باسم « الأولياء » كما جاء في آية الزمر (٣) التي نقلناها آنفاً ايضاً .

— ٤ —

وتعابير « الأولياء » و« الشفعاء » و« الشهداء » تتضمن معنى التوسل والتوسط والاستنصار او الحاجة الى المساعدة والتقرب عند الله .

فالأولياء جمع ولي وهو الحليف او الموالي . وقد مرّ بك في فصل العصبية الاجتماعية عن هذه الكلمة واصل اشتقاقها وهو « الولاء » . ولم يكن العربي يتولى الآخر على هذه الطريقة إلا اذا كان يشعر بحاجة الى نصر او مساعدة ؛ فاطلاق هذا التعبير على الشركاء كأنما يعني ان المشرك كان يتخذ من الشركاء « الأولياء » وسيلة للاستنصار والامن والطمأنينة بسبب شعوره بالحاجة الى ذلك ولقد تضمنت إحدى آيات سورة الاسراء هذا المعنى :

« وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل ... ١١١

كما ان آية الزمر التي اشرنا اليها تضمنت المعنى المراد من اتخاذ الأولياء وهو تقريب المشركين عند الله .

والشهداء جمع « شهيد » وتعني الكلمة « الحاضر او الشاهد » كما قال المفسرون فكأنه اريد بهذا التعبير ان يكون للمشرك شهداء يحضرون معه او يعضدونه في تلبية مطالبه واستجابة دعائه لدى الله . ولقد تعددت اقوال المفسرين[1] في محمول كلمة « الشهداء » في الآيات التي وردت فيها. فما قيل إنها اريد بها ما اتخذه المشركون

(١) اقرأ الطبري ج١ ص١٢٨ والنيسابوري في هامشه ص١٨٦ والرازي ج ١ ص ٢٢٧ والنسفي في هامشه ص١٣٩ وقد رجح الرازي أنهم الرؤساء الاحياء

من الشركاء وقد اطلقت عليهم مجازاً ، وإن هذا ماعنته آية البقرة(٢٣)التي نقلناها قبل . ومما قيل إنه اريد بها الرؤساء الذين يستطيعون المساعدة والنصر والتأييد. وفي الأنعام آية تجعل صرف محمول هذه الكلمة الى الرؤساء الاحياء أقوى وارجح وهي:

« قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم...

الأنعام ١٥٠

فهذه الآية تفيد ان الشهداء الذين يطلبون دعوتهم للشهادة قد يحضرون وقد يشهدون . وطبيعي ان هذا لا يحتمل إلا من حي . غير اننا نريد ان نضيف الى هذا القول الثاني رأياً نظن انه وجيه ، وان المراد يستقيم به اكثر وله مماثلة مافي القرآن وهو أن القصد من هؤلاء الرؤساء الشهداء هم رؤساء الدين الذين كانوا يلقنون الناس واجباتهم الدينية ، ويسنون لهم او يذكرونهم بتقاليدهم الدينية لا الرؤساء في الوجاهة والغنى والزعامة . ويمكن ان يكون في روح ومضمون آية الأنعام وسياقها تأييد لهذا التوجيه . لأن الآية جاءت تعقيباً على تنديد حجاجي في صدد تحريم الأنعام وتحليلها ، وتطلب دعوة الشهداء ليشهدوا بكون هذا التحريم والتحليل مشروعين ، ولا يحتمل هذا إلا من شهداء لهم سلطة او رأي ديني مسموع . وعلى هذا فان المشركين كانوا يستعينون بالدعاء والتوسل ايضاً بهؤلاء او اولئك او كليهما لانهم اقرب الى الله واحظى بسبب علمهم ورآستهم الدينية او انقطاعهم للخدمة الدينية ، ويسمونهم شهداء اي حاضرين موجودين عند الاصنام والاوثان أو في بيوتها ، أو منقطعين الامور الدينية ومرجعاً للناس في ما يرغبون معرفته من مراسيمها ومقاليدها وطقوسها ومشاكلها ؛ كما انه كان لهؤلاء سلطة رجال الدين في الفتيا والتشريع والأمر والنهي النافذين . واذا صح هذا التوجيه ففيه صورة من الصور الطريفة غير المعروفة عن ذلك العهد ، ومتسقة مع ذلك مع المنطق والمتعارف ، ومماثلة لما عند الامم الأخرى بل لما لا يزال موجوداً ومتعارفاً في مختلف البلاد على اختلاف درجاتها في الحضارة .

ولقد جاء في سورة التوبة آيات احتوت حملة على اليهود والنصارى لاتخاذهم احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله جاء فيها :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ...

وطبيعي أن وصف الاحبار والرهبان بالربوبية هو بسبيل ما كان لهم على رعاياهم من تأثير شديد يجعل هؤلاء يتلقون أوامرهم كشرع واجب الخضوع والتنفيذ. فوجود رجال ذوو سلطات دينية وسدنة للاوثان والاصنام والكعبة لهم نفوذ وكلام مسموع وسنتهم مطاعة متبوعة متسق مع طبائع الأمور في حد ذاته ؛ ولا يبعد ان يكون العرب مع ذلك قد تأثروا في هذا او في تركيزه باليهود والنصارى.

— ٤ —

والشفعاء جمع « شفيع » وهو الذي يتقدم بالشفاعة بآخر محتاج لها لدى من يكون له حظوة عنده من الاقوياء وذوي الطول ، فكأنما كانوا إذ يتخذون شفعاء يعتبرون أن هؤلاء الشفعاء أقرب الى الله منهم واحظى . وفي القرآن ايات تدل على ان الملائكة كانوا ممن يتخذهم المشركون العرب شفعاء باعتبار انهم احظى عند الله منهم ، وكانوا أو كان منهم من يعتقد أنهم بنات الله ، وهذا ما كان يزيدهم في نظرهم حظوة عند الله وقربى :

١ — وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد (١) مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ... الانبياء ٢٦ — ٢٩

٢ — أفرأيتم اللاة والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للانسان ما تمنى فلله الأخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ... النجم ٢٠ — ٢٧

على أن بعض الآيات تلهم أن الشفاعة لم تكن محصورة في الملائكة وان من

(١) يعني الملائكة

العرب من كان يعتبر معبوداتهم المادية شفعاء لهم أيضاً :

«أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ..

الزمر ٤٣

فالقرآن الذي مدح الملائكة بما مدحهم به في آيات الانبياء التي نقلناها وغيرها لايمكن ان يصفهم بغير العقل ، وبالتالي فلا بد من ان يكون المعنيون غير عاقلين أي اوثاناً .

ويبدو من بعض الآيات أن المشركين كانوا يؤدون لشفعائهم نوعاً من العبادة حيث كانوا يعاتبون على ذلك فيعتذرون بانهم إنما هم شفعاؤهم عند الله على ما جاء في آية سورة يونس (١٨) التي نقلناها قبل .

وبهذه المناسبة يجدر ان ننبه على كثرة ما ورد في القرآن من الآيات التي تتضمن كلمة « الشفاعة » ومشتقاتها والتي تنفي نفع الشفاعة وتأثير الشفعاء الذين لا يرتضي بهم الله ولا يأذن لهم . وصيغة الآيات قوية وحازمة ، مما يدل على ان فكرة الشفاعة والشفعاء مما كان راسخاً ، وان الاعتقاد بفائدتها مما كان قوياً وشائعاً في اذهان العرب حتى اقتضت الحكمة ان تكون الآيات بهذا الأسلوب لزعزعة هذا الاعتقاد وإضعافه أوإزالته بالمرة ، لأنه مؤد الى الشرك عن طريق الاعتقاد بنفع الشفعاء وتأثيرهم كما ترى في الأمثلة الآتية

١ — واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ...

البقرة ٤٨

٢ — من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة... البقرة ٢٥٤

٣ — يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا... الأعراف ٥٣

٤ — لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً... مريم ٨٧

٥ — يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون .... الأنبياء ٢٨

٦ — ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء

وكانوا بشركائهم كافرين ... الروم ١٣

٧ — مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ... السجدة ٤

٨ — أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ... الزمر ٤٣

٩ — وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ... النجم ٢٦

١٠ — فما تنفعهم شفاعة الشافعين ... المدثر ٤٨

ويمكن أن يقال إن أذهان العرب او أذهان كثير منهم ما كانت لتسيغ ان دعائهم الى الله يستجاب اذا وجه منهم اليه مباشرة ، وانهم لابد لهم من وسطاء يختصونهم بالاتجاه المباشر ، ويتوسلون بهم الى الله ويشركونهم في الدعاء ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، فتركزت في أذهانهم فكرة الشفاعة والشفعاء حتى كانت جزءاً من عقائدهم وعباداتهم ، وحتى انقلبت هذه العقيدة الى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر كما يفهم من فحوى الآيات التي اوردناها وامثالها التي لم نوردها.

على ان من الحق ان نستدرك ان عقيدة الشفاعة والشفعاء ليست خاصة بالعرب وانها كانت حتى على النحو الذي كانت عليه عند العرب وما تزال في كل عصر وبيئة وعند كل امة ونحلة وسواء منهم الكتابيون وغير الكتابيين وخاصة بين العوام باشكال وصور ومظاهر متعددة ، وان فكرتها انتقلت الى المسلمين وظهرت عندهم كذلك بمظاهر متعددة ايضاً . وقد كان في الآيات التي جاء فيها ان الشفاعة لا تنفع الا لمن أذن الله ورضي عامل على انتقال الفكرة واستمرارها . وفي الاحاديث و كتب السيرة والتراجم روايات عديدة تؤيد ذلك . وبطبيعة الحال يجب ان يفهم ان فكرة الشفاعة التي استمرت في الاسلام وعند عقلاء المسلمين هي في الجوهر والاساس فكرة مبرأة من نزعات الشرك التي حاربها القرآن .

— ٥ —

اما تعابير « الشركاء » و « الارباب » و « الانداد » و « الآلهة » فانها تتضمن معنى المماثلة والاشتراك مع الله في الربوبية .

فالشريك قسيم لشريكه وله وعليه في الشركة نصيب مماثل . ومعنى هذا أن المشركين إذ سموا معبوداتهم شركاء كانوا يعتقدون انهم قسيمون لله في ملكه والتأثير فيه بضر أو نفع بشكل ما ، وهذا ما يمكن أن يفهم من الآيات التي ذكر فيها الشركاء بأسلوب فيه تحد وتهكم وتسفيه ، ونفي بات بان يكون لهم أي نصيب او شركة باي شكل كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي الى الحق أفمن يهدي إلى الحق أحق ان يتبع أم من لايهدّي إلا ان يُهدى فمالكم كيف تحكمون . يونس ٣٤ — ٣٥

٢ — الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون . الروم ٤٠

٣ — قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير . سبأ ٢٢

٤ — قل ارأيتم شركائكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من من الأرض أم لهم شرك في السموات ... فاطر ٤٠

ومن معاني « الرب » المالك والسيد المطاع وصاحب الأمر والشأن ، والمربي والمنشيء . وقد قال الزمخشري إن هذا التعبير لا يطلق أي لا يستعمل بدون اضافة إلا على الله وحده .

وفي سورة الناس استعملت الكلمة في مااستعملت فيه كلمة الاله:

«قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس... ١ — ٣

وفي آية سورة يوسف (٣٩) التي نقلناها مقارنة بين الله والارباب ، وهذه المقارنة يمكن ان تحمل معنى استعمال الكلمة في مقام المماثلة لكلمة «الله» و «الاله» وهذا المعنى يلمح كذلك في آيات قرآنية اخرى حيث تصف الله برب العالمين ورب السماوات والارض ورب العرش العظيم كما ترى :

١ — قل من رب السماوات والارض قل الله . الرعد ١٦

٢ — قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ... المؤمنون ٨٦
٣ — الحمد لله رب العالمين ... الفاتحة ١

كما ان هذه الكلمة استعملت في آيات كثيرة في التعبير عن « الله » كما ترى في الامثلة التالية :

ادعو ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ... الاعراف ٥٥
٢ — رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض . يوسف ١٠١
٣ — وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق .
الاسراء ٨٠
٤ — وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ... غافر ٦٠

فمن هذا يظهر ان تعبير « الرب » وإطلاقه على المعبودات والشركاء يحمل معنى المماثلة والربوبية والألوهية .

والأنداد جمع « ند » وهو العدل والكفوء والمماثل وقد ذكر بعض المفسرين(١) ان هذه الكلمة تتضمن معنى المخالفة او المضادة بالاضافة الى معنى المماثلة من « الندود » ؛ فكأنما اريد بهذا التعبير الاشارة الى ان المشركين كانوا يعتبرون الشركاء الذين يتخذونهم أنداداً لله واكفاءً مماثلين ومناظرين له . وفي الآيات الآتية تجد هذا المعنى واضحاً بل تجد في بعضها معنى المماثلة المعارضة او المخالفة التي اشار اليها المفسر النيسابوري .

١ — ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ... البقرة ١٦٥
٢ — وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار .
ابراهيم ٣٠

---

(١) النيسابوري على هامش الطبري ج ١ ص ١٧٩

٣ــ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ... سبأ ٣٣

وقد ذكر الرازي من جملة الاقوال عن الأنداد أنهم الرؤساء الذين كانوا يأمرون الناس فيطيعونهم كما يطيعون الله . غير ان اكثر الاقوال على ان المراد بالأنداد المعبودات والشركاء ، والآيات الآنفة تجعل الرجحان لهذه الاقوال .

والإله هو اقوى التعابير في الدلالة على المعبود . ولذلك اطلق في القرآن على الله ونفى ان يكون الآلهة غيره أو معه . واطلاق المشركين هذا التعبير على شركائهم قد يعني اعتبارهم اياهم معبودات رئيسية مساوية لله عز وجل . وقد حكي القرآن عجبهم من دعوة النبي (ص) الى الله وحده :

«أجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الأخرة إن هذا إلا اختلاق ... ص ٥ ــ ٧

ورد عليهم القرآن ردوداً فيها افحام منطقي وفيها تأييد لما قلناه من انهم كانوا يعنون باطلاق تعبير الآلهة على شركائهم انهم آلهة رئيسية مساوية لله كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا ... الأسراء ٤٢

٢ ــ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ... الانبياء ٢٢

٣ ــ ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر انفسهم ولاهم منا يصحبون الانبياء ٤٣

وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول إنه كان لمشركي العرب شركاء وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله وشركاء اصليون ومماثلون واكفاء له ، وإنه كان يطلق على الاولين اسماء « الاولياء والشفعاء والشهداء » وعلى الآخرين اسماء الشركاء والارباب والانداد والآلهة .

ولقد يخطر بالبال سؤال وهو ما إذا كان اهل النبي (ص) وبيئته المشركون قد اتخذوا شفعا ووسطاء وفي الوقت نفسه كان لهم شركاء رئيسيون مع الله ؟ وادا كان هذا واقعاً فكيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من حكاية اقوال لهم فيها اعتذار عن اتخاذ الاصنام والشركاء بأنهم انما يتخذونهم شفعاء ويعبدونهم ليقربوهم الى الله زلفى كما جاء في آيتي يونس والزمر (١٨) و (٣) ثم كيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من اعترافهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السماوات والارض كما جاء آيات عديدة منها :

١ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم .
الزخرف ٩

٢ — ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون ... « ٨٧

ونظن اننا في غنى عن التنبيه على ان حكاية اقوالهم تتضمن تقرير فهمهم للمراد من لفظ الجلالة وتعبير العزيز ، وعلى ان هذا الفهم يتسق مع المدلول الحقيقي والقرآني للتعبيرين ، وانه ليس من محل للقول إن العرب في قولهم « الله » يمكن ان يكونوا قصدوا غير الله الحقيقي المراد في القرآن ؛ ففي الآيتين اللتين نقلناهما وفي كثير من الآيات غيرها صراحة لاتحتمل تردداً ولا كلاماً .

ومهما يكن امر فالآيات القرآنية تساعد على القول إن الذين حكيت فيها اقوالهم كانوا يعتقدون بالله كأله اعظم خالق الاكوان ومدبرها ، ويكتفون باتخاذ الشفعاء والاولياء لديه ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، ويعتقدون بأن لهم اثراً في النفع والضر والخير والشر بسبب حظوتهم عند الله ؛ ومن هنا استحقوا وصف المشركين .

وما دام ان آيات قرآنية كثيرة قد تضمنت ذكر الشركاء والارباب والاندداد والآلهة ، واحتوت حملات تقريعية على المشركين الذين يشركون مع الله شركاء وأنداداً وآلهة وأرباباً ، وفيها ما يلهم أن المشركين كانوا يعتقدون لهؤلاء مماثلة او مشاركة او ندية او قدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والاعطاء والمنع

فأن منطق البحث يؤدي بنـا الى القول إنه كان بين مشركي العرب من اهل بيئة النبي (ص) وعصره أناس يعترفون لله بالألوهية أو الربوبية العظمى ويكتفون بالشفعاء والأولياء ، وأناس كان لهم معبودات او آلهة رئيسيون يشركونها مع الله ؛ والبيئة تحمل ذلك فيما يتبادر لنـا ؛ فقد كان سكانها متفاوتين في ظروف الحيـاة ووسائلهـا من حيث الحضارة والبداوة ومن حيث التنقل والاقامة ، ومن حيث الاحتكاك بالعالم والعزلة عنه كما فصلنا ذلك في بحوثنا السابقة ؛ ولا يعقل أن يكون التفكير الديني واحداً في هذه البيئة التي يتفاوت سكانها هذا التفاوت .

— ٧ —

فاذا صح استنتاجنا هذا ونعتقد انه صحيح فيكون الاكتفاء بالشفعاء والأولياء وبكلمة اخرى اعتبار الشركاء من أصنام ومخلوقات أخرى وسائل ووسائط الى الله إنما كان من قبل الطبقات النيرّة التي تيسر لها ان تتصل بالعالم وبالكتابيين ، وأن ترتفع عن درجة اتخاذ الاصنام المادية والمخلوقات الاخرى آلهة رئيسية لها قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجـاد والافناء وان تنزلهـا الى مرتبة الشفعـاء والأولياء، لاسيما وقد كانت حوصلة الكتابيين الذين يؤمنون بالله تتسع لشيء مثل هذا حيث كانوا إلى جانب إيمانهم بأله واحد صراحة او تأويلا يتخذون من قديسيهم وانبيائهم ومن الملائكة شفعاء وأولياء يشركونهم في الدعاء ويتوسلون بهم إلى الله، ولعل في الآية التالية اشارة ما إلى هذا :

«ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون...
آل عمران ٧٩ — ٨٠

اما طبقة العوام والبدو خاصة فانهم ظلوا في تلك الدرجة يعتقدون في معبوداتهم المادية وغير المادية قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجاد والافناء مع معنى غير واضح عن الله كآله أعظم ورب للأرباب.

وهكذا تبدو لنا آثار خطوة تطورية في التفكير الديني قبل البعثة النبوية مما

سوف نشير اليه بتوسع اكثر في مناسبات آتية .

هذا ؛ واذا نحن سقنا الحديث الى البيئة الحجازية فاننا لا نرمي إلى إخراج البيئات العربية الاخرى مما يمكن أن تحمله البيئة الحجازية من التفاوت في التفكير او الذهنية الدينية ، ولا من احتمال أن يكون آثار خطوة مماثلة قد ظهرت فيها ايضاً .

— ٨ —

وورود كلمات الشركاء، والأنداد والآلهة والشفعاء والأولياء والشهداء في الآيات القرآنية بصيغة الجمع يمكن ان يدل على ان المشركين كانوا يعددون شركاءهم ، سواء منهم من اتخذ شركاء رئيسيين ،او شركاء شفعاء ؛ اى إنه كان للجماعة الواحدة مثلاً شركاء عديدون في وقت واحد .وقد حكت آيات سورة صاد ٥ — ٧ التي نقلناها استغراب المشركين وغيظهم من دعوة النبي (ص) إلى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، وحكت كذلك آيات في سورتي الأنبياء والفرقان استخفافهم بالنبي (ص) لأنه يذكر آلهتهم بما يكرهون وتمدحهم لأنفسهم لصبرهم عليها وعدم تأثرهم بدعوة النبي (ص) مما يؤيد ما نقوله من تعدد المعبودات :

١ — وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ... الانبياء ٣٦

٢ — وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها ... الفرقان ٤ — ٤٢

وليس في القرآن مايمكن الاستدلال به على شيء محدود في موضوع تعدد الآلهة او ايضاح المقصود منه ، وكيفية الجمع بين عبادة آلهة متعددة من قبل جماعة واحدة، غير ان بعض الروايات قد ذكرت اشياء يمكن ان تكون صحيحة ومفسرة لهذا التعدد . ففي ابن هشام (١) في بحث أصنام العرب ما يفيد أنه كان لكل قبيلة او ناحية او مدينة صنم خاص باهلها . وقد اورد اسماء بعض القبائل والمدن وسمى لكل اسم صنمها او معبودها . فلخولان صنم « غم انس » ولبني ملكان صنم اسمه « سعد »

(١) ج ١ ص ٧٥ ج ١ ص ٨٠

وكانت العزى لقريش وكنانة ، و « اللات » للطائف و « مناة » ليثرب ، وكان لدوس وخثعم وبجيله صنم اسمه « ذو الخلصه » ، ولقبائل طي ومن يليها صنم اسمه « الفلس » ولقبائل بكر بن وائل صنم اسمه « ذو الكعبات » في حين أن العرب جميعهم كانوا يشتركون في مناسك حج واحدة ، ويطوفون حول الكعبة ، ويقدسون حجرها ويسعون بين الصفا والمروة ، وكان على الصفا والمروة اصنام ، وفي فناء الكعبة وداخلها اصنام يقدمون لها العبادة والتعظيم ، وقد ذكر ابن هشام كذلك أن الهدى والذبائح كانت تذبح عند صنمي اساف ونائله قرب الكعبة ؛ وان العرب كانوا اذا ارادوا ان يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً او يدفنوا ميتاً ، أو اذا شكوا في نسب احدهم او ارادوا سفراً او تجارة او استخارة في نازلة أو خلاف أو مقصد ذهبوا إلى هبل وكان صنما في جوف الكعبة فاعطوا صاحب القداح مأة درهم وجزوراً وطلبوا منه ان يضرب بالقداح على الأمر الذي ارادوا او اختلفوا فيه (١) ، وكان على القداح كلمات أمر ونهي ونعم ولا ، وانه كان لكل بيت صنم خصوصي (٢) ، وقد جاء في تفسير البيضاوي أن مناة مشتقة من « النوء » وان العرب كانوا يستمطرون بها اى يدعون عندها من اجل نزول المطر اذا امسكت السماء ، ومهما كان من امر هذه الروايات والاقوال وامثالها فان فيها توجيهاً وجيهاً لهذا التعدد الذي كان موجوداً عند العرب بنص القرآن .

— ٩ —

وإذا أردنا أن نرسم صورة قائمة على الفرض المقارب للواقع على ما نظن فاننا لا نكون متجوزين اذا قلنا إن هذا التعدد لا يخلو من احد تفسيرين : فاما ان يكون هناك آلهة عموميون يشترك في عبادتها اهل المدينة او الناحية او الصقع في المناسبات العامة ، وآلهة خصوصيون للجماعات الصغيرة التي تجمع بينها الأرحام والسكنى والمحلة كالعشيرة والفخذ والحي بل والقبيلة ؛ وأما ان يكون لكل مطلب من

(١) ج ١ ص ١٤٢

(٢) ج ١ ص ٨٠ وفي كتاب الاصنام للكلبي كثير مما ذكره ابن هشام وزيادات عليه لم نر ضرورة الى ايرادها .

مطالب الحياة إلّه لخاص ، فاذا أرادوا ان يستغيثوا جاؤا الى إلّه او دعوه ، واذا ارادوا ان يستشفوا من مرض جاؤا الى إلهه او دعوه ، واذا ارادوا أن يقربوا القرابين قربوها عند إلّهها ، واذا ارادوا ان يستخيروا في عمل استخاروا عند إلّه وهلم جرا .

ولا يبعد أن يكونوا جمعوا الأمرين معاً ، او ان يكون منهم من جمعها بحيث كان هناك آلهة عموميون وآلهة خصوصيون ، وكان هناك في الوقت نفسه آلهة مخصوصون لكل مطلب من مطالبهم .

ولقد فعلت الأمم الأخرى مثل هذا في مصر والشام واليونان فمن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوا الفكرة اقتباساً ، او لعل هذا طور من اطوار الحياة الدينية حيث يتوهم الناس وجود آلهة عموميين وآلهة خصوصيين ، وانهم لا غنى لهم عن هذه وتلك ، وحيث يتوهمون كذلك ان تعدد مطالبهم وحاجاتهم او تعدد مظاهر الحياة والطبيعة يقتضي وجود إلّه لكل حاجة ومطلب أو لكل مظهر من مظاهر الحياة والطبيعة وهذا هو الذي نميل اليه .

وهذا الذي قلناه ينسحب على المشركين الذين اعتبروا شركاءهم رئيسيين او مماثلين او أمداداً او الذين اعتبروهم وسطاء وشفعاء ؛ حيث يصح ان يقال بالنسبة للاخرين إنهم كان لهم شفعاء عموميون اي يشترك في الاستشفاع بهم مختلف الناس وشفعاء خصوصيون للمحلة او القبيلة او العشيرة ، او كان لهم شفعاء ووسطاء لكل مطلب ، أو إنهم جمعوا بين الأمرين ، لا سيما واعتبار الآلهة والشركاء شفعاء ووسطاء هو كما قلنا خطوة تطورية عن الأصل الذي ظل في نطاقه جمهور المشركين وبدوهم خاصة . واذا لاحظنا ان هذه الطبقة كانت من أهل مكة او ان منها من هم من أهل مكة امكن تقوية هذا برواية ابن هشام التي كانت تدور حول امور مكية ، فأساف ونائلة في مكة وهبل في مكة والكعبة في مكة ؛ هذا بالاضافة الى ان الآيات المكية كانت تحكي على الأغلب مواقف وحجاج اهل مكة كما هو المتبادر .

— ١٠ —

وقد مر في بحث الشفعاء أن المشركين العرب كانوا أو كان منهم من يعتقد

أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم على هذا الأساس .

وقد رأينا من المفيد ان نتوسع قليلا في هذه النقطة لأنه قد اشير اليها في آيات قرآنية كثيرة ، كما انها تنطوي على صور طريفة من صور التفكير الديني في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .

إن هذه الآيات متنوعة الاسلوب . فمنها ما ورد فيه لفظ البنين والبنات معاً :

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ... الأنعام ١٠٠

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ « الولد » بصيغة المفرد :

١ — وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني ... يونس ٦٨

٢ — وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم ... الكهف ٤-٥

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ البنات فقط :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ... النحل ٥٧

٢ — فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ... الصافات ١٤٩

والتمعن في الآيات على انواعها الثلاث وسياقها يرى انها إنما تحكي اقوالا ومزاعم أو بالأحرى عقائد عربية ، وليست بسبيل العقيدة النصرانية وبنوة عيسى (ص)، وبكلمة ثانية ليست واردة في صدد مجادلة النصارى أو حكاية عقائدهم ، وانما هي في صدد مجادلة مشركي العرب وتقريعهم .

وننبه اولا على ان تعبير «الولد» يشمل الذكر والأنثى بل والمفرد والجمع احياناً وبنص القرآن (١) وثانياً انه جاء في سورة الانبياء آيات تدل بصراحة على ان المقصود من نسبة الولد هم الملائكة :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . ٢٦ - ٢٧

(١) آيات الانبياء ٢٦ - ٢٧ بدءت بكلمة ولد وفسرتها بعباد

وثالثاً انه جاء في سورة الصافات عقب الآية (١٤٩) ما يدل بصراحة على ان البنات المنسوبة الى الله في عقيدة العرب هم الملائكة :

«أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون. ألا انهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكرون ١٥٠-١٥٥

وهكذا ترتبط حلقات السلسلة بحيث يمكن القول إن الآيات القرآنية بسبيل حكاية عقيدة عربية بان لله اولاداً وإن هؤلاء الأولاد بنات وانهم الملائكة .

وليس بعيداً أن تكون فكرة او عقيدة العرب في اتخاذ الله اولاداً قد تسربت اليهم من النصارى والعقيدة النصرانية . ولقد تحدتهم آيات في سورة الصافات التي احتوت تنديداً بهم على نسبتهم البنات لله بان يأتوا كتاباً يؤيد عقيدتهم :

« أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . »

١٥٦ — ١٥٧

حيث يمكن الاستئناس بهذا التحدي على هذا التسرب ، كأنما أريد القول لهم اذا كان للنصارى كتاب فيه نسبة المسيح ابناً لله ولو مجازاً فهل عندكم كتاب فيه برهان او ذكر يؤيد نسبة الملائكة بنات لله .

— ١١ —

على اننا نرجح اذا كانت هذه الفكرة قد تسربت للعرب من النصارى او العقيدة النصرانية ان يكون هذا وقع قبل البعثة بزمن غير قصير ؛ ثم تطورت او بعبارة أصح « تأثلمت » ، وارتدت ثوباً طريفاً فصارت بدل الابن الواحد بنات كثيرين ، وبدل الجسم الانساني أو الناسوتي المادي او المشاهد الذي مشي في الأسواق واكل الطعام ملائكة او بعبارة أخرى موجودات روحانية تصورية وغير مرئية .

والأطرف من هذا أن العرب جادلوا عن فكرتهم أو عقيدتهم التي طوروها وأقلموها ، واعتبروها معقولة ومنسجمة مع الفكرة الالهية اكثر من فكرة بنوة عيسى (ص) كما حكت ذلك بعض آيات سورة الزخرف :

« ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو

ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون .

الزخرف ٥٧ — ٥٠

فهذه الآيات تشير الى جدل وقع بين النبي (ص) والعرب الذين اعتقدوا بأن الملائكة بنات الله واتخذوهم شفعاء لهم ، وتلهم انهم قالوا ان فكرة بنوة الملائكة لله معقولة اكثر من فكرة بنوة ابن مريم لان الملائكة موجودات روحانية غير مرئية وهم بذلك اكثر لصوقاً او انسجاماً مع ايهم الله في حين ان ابن مريم انسان مادي كسائر الناس ، وتلهم انهم قالوا ايضاً ان عقيدتنا ببنوة الملائكة اكثر اصابة من اصابة النصارى في عقيدتهم ببنوة المسيح(ص) وأن آلهتهم والحالة هذه ويعنون بها الملائكة هي خير من عيسى (ص) الذي اتخذه النصارى الهاً.

وورود ذكر الملائكة في الآيات وما جاء فيها من ان الله لو شاء لجعل ملائكة في الارض لانهم عبيده كما ان عيسى (ص) عبده يؤيد ان الجدل كان بين عقيدتهم ببنوة الملائكة والوهيتهم وعقيدة النصارى ببنوة عيسى (ص) والوهيته .

وقد رد القرآن عليهم بان القياس غلط والاحتجاج بعقيدة النصارى فيه مع النبي في غير محله فعيسى (ص) هو بشر وعبد أنعم الله عليه وأرسله رسولاً لبني اسرائيل أن اعبدوا الله ربي وربكم، إن ما كان من انحراف في شأنه انما جاء من الناس والمنحرفين عذاب الله :

«ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم .»

الزخرف ٦٣ — ٦٥

الفصل الثاني

المعبودات المادية او الوثنية

المعبودات المادية عند العرب بوجه عام واستدلالات قرآنية — الفاظ المعبودات المادية في القرآن — لفظ الاوثان ودلالته — لفظ الاصنام ودلالته — لفظ التماثيل ودلالته — لفظ الانصاب ودلالته — اسماء الاصنام في القرآن — اللات والعزى ومناة — صلة التسمية بين اللاتو البابلية واللات الحجازية ولفظ الجلالة — ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر — بعل — الطاغوت والجبت — الطواغيت او بيوت الاصنام وكعباتها .

— ١ —

إن المعبودات المادية كانت اكثر مظاهر الشرك عند العرب ؛ وكانت تشغل حيزاً كبيراً في اديانهم وعقائدهم ، سواء في ذلك الذين اعتبروا معبوداتهم آلهة وشركاء رئيسيين مع الله او الذين اعتبروها شفعاء ووسطاء اليه كما تدل على ذلك آيات قرآنية عديدة .

فآية الزمر (٤٣) التي نقلناها في الفصل السابق والتي ذكر فيها الشفعاء وصفوا فيها بأنهم لايملكون شيئاً ولا يعقلون ، وهذه صفات المادة الجامدة . وآية يونس (١٨) التي نقلناها كذلك فيه ، تتضمن شيئاً من هذا ايضاً إذ جاء فيها انهم يعبدون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون إنهم شفعاؤهم عند الله ، وقد جاء في سورة الانبياء آية تذكر انهم اتخذوا آلهة من الارض مما يعني المواد الجامدة كما هو المتبادر :

« أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ... » ٢١

وفي سورة الاعراف آيات اطلق فيها على الشركاء صفات المادة الجامدة التي لاتستطيع المشي ولا البطش ولا الابصار ولا السمع كما ترى فيها :

١ — إن الذين تدعون من دون الله عباد(١) امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم

(١) عباد هنا بمعنى مخلوقات حيث يدخل فيها الحي وغير الحي كما فسرها المفسرون وكما هو واضح من روح الآية .

إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون..
الأعراف ١٩٤-١٩٥

٢ - والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون. وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ...
الأعراف ١٩٧-١٩٨

— ٢ —

وألفاظ المعبودات المادية الصريحة لم ترد في القرآن بكثرة . غير ان الآيات التي ذكر فيها الشرك والشركاء والآلهة والشفعاء والأولياء او التي فيها اشارة الى عبادة او دعاء مادون الله قد تضمنت الاشارة اليها في سياق التسفيه والتنديد بعبادة مالا يعقل ولا يملك ولا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر.

على انه قد ورد في القرآن آيات ذكرت فيها ألفاظ « الأوثان » و « الأصنام » و « الأنصاب » و « التماثيل » اولاً وذكرت فيها كذلك اسماء بعض ما كان موجوداً منها في عصر النبي (ص) وبيئته ثانياً.

فأولاً ان لفظ « الأوثان » قد ورد في آية من سورة الحج وفي سياق الاشارة الى مناسك الحج وشعائره كما ترى :

«وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق ... الحج ٣٠-٣١

وقد ورد هذا اللفظ ايضاً في آيات قصص ابراهيم وحكاية خطابه لأبيه وقومه كما ترى :

١ — إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ... العنكبوت ١٧

٢ — وقال إنما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ...
العنكبوت ٢٥

وآيات الحج خاصة في حق أوثان العرب في الوقت الذي نزلت فيه ، تلهم بأن هذه الكلمة تطلق على المعبودات المادية عموماً ، وليست على نوع معين منها ؛ حيث امرت المسلمين باجتنابها وبأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين معه شيئاً ما مطلقاً ، وحيث نعتت الأوثان بالرجس وهو نعت يمكن ان ينعت به كل معبود مادي .

والمفهوم العام لهذه الكلمة ولا سيما كلمة « الوثنية » يؤيد تلك العمومية ، حيث تعني عبادة المعبودات المادية على اطلاقها ، وليس عبادة نوع معين منها .

وثانياً ان لفظ «الأصنام» لم يرد في الآيات التي وجه فيها الخطاب الى المشركين او العرب وإنما ورد في آيات قصص ابراهيم كذلك كما ترى في مايلي :

١ — رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ... ابراهيم ٣٥

٢ — وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . الانبياء ٥٧

٣ — إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . الشعراء ٧٠ — ٧٣

وورد هذا اللفظ ايضاً في سياق آيات قصص بني اسرائيل كما ترى :

«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . الأعراف ١٣٨

وهذا اللفظ وان لم يرد كما قلنا موجهاً الى مشركي العرب فان آيات سورة ابراهيم قد وردت في سياق حكاية دعاء ابراهيم (ص) في الحرم وقصة إسكانه من ذريته فيه ، وللعرب وخاصة للحجازيين صلة وثيقة بهذه القصة وذلك السياق كما لايخفى . كذلك فان موقف ابراهيم (ص) من قومه ومحاورته لهم مما لم يرد في التوراة ، ومما يصح ان يكون عربي الرواية والتداول كاكثر قصص ومواقف ابراهيم (ص) على ما اشرنا اليه من قبل . وعلى هذا فلا تجوز اذا قلنا استلهاماً من القرآن إن العرب الذين يسمعون القرآن كان لهم أصنام ، وإن الآيات استهدفت فيما استهدفته الاشارة الى مخالفة صريحة لدعاء ابيهم ابراهيم (ص) ، ولقدسية البلد الذي جعله الله امناً بدعوته ، والى انهم يدخلون

في متناول تنديد ابراهيم (ص) لقومه على اتخاذهم الاصنام . هذا الى بداهة وجود مسمى معروف المدى والعيان عند العرب لكلمة « الاصنام » التي وردت في القرآن والتي لابد من انها كانت موجودة مألوفة في اللغه العربية قبل نزوله .

وثالثاً ان لفظ التماثيل ورد مع لفظ الاصنام في سلسلة واحدة من آيات سورة الانبياء كما ترى:

« إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ... الانبياء ٥٢ - ٥٧

وورد كذلك في معرض ذكر ما كان يعمله الجن لسليمان (ص) من اعمال عظيمة كما ترى :

«ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ... سبأ ١٢ - ١٣

وورود ذكر التماثيل والاصنام في سلسلة واحدة يدل على أن الكلمتين مترادفتان او على الاقل ان الواحدة منها يمكن ان تعبر عن الاخرى او تطلق عليها احياناً . وآيات سبأ يمكن ان تدل على ان التماثيل تصنع صنعاً عدا ان اللفظ نفسه يفيد معنى المماثلة لصورة ما ، وهذا يكون بالصنعة في الاغلب . وقد ورد في بعض آيات قصص ابراهيم (ص) ايضاً ما يفيد ان قومه كانوا ينتحتون اصنامهم او تماثيلهم كما ترى :

«فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين. فاقبلوا اليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون . . الصافات ٩١-٩٦

وهذا يعني ان التماثيل او الاصنام هي احجار او معادن كانت تنحت نحتاً وتصنع صناعة على اشكال وصور ؛ ويعني او يلزم كذلك ان العرب كانوا يطلقون اسم الاصنام والتماثيل على ما هو مخلق من الاوثان ، وانهم كانوا يعرفون مسميات اللفظين وكان لهم شيء منها .

وآيات الاعراف (١٩٤ — ١٩٥ — ١٩٧ — ١٩٨) التي نقلناها قبل قليل تؤيد هذا إذ تلهم ان الاصنام كانت تصنع على أشكال او صور المخلوقات الحية لها أيد وأرجل واعين وآذان .

ورابعاً ان لفظي « النصب » و « الانصاب » قد وردا في آيات ثلاث وجه الخطاب فيها للمسلمين ، ومثل في احداها حركة خروج الناس من القبور يوم الحشر بما اعتادوه من سرعة الجرى نحو الانصاب ، والكلام في صدد المشركين وانذارهم :

١ — حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبُع الا ما ذكيتم وما ذُبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام ... المائدة ٣

٢ — ياايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ... المائدة ٩٠

٣ — يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كانهم الى نصب يوفضون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ... المعارج ٤٣ — ٤٤

والكلمة مشتقة من نصب ، وقد قال بعض المفسرين إن الانصاب هي الاحجار المنصوبة للعبادة كما قال بعضهم انها مرادفة للاصنام . وقد ذكر هذا الخازن في رواية معزوة إلى ابن عباس (رض) . ومن المحتمل ان لم نقل من المرجح انها تعني المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة او غير مخلّقة . وفي الآيات قرائن على هذا ؛ فآية المائدة (٤) تشير إلى تحريم اكل الذبائح التي تذبح على النصب أي تذبح عند الاصنام ويذكر اسمها عليها كما فسرها بذلك بعض المفسرين . وقد ذكر ابن هشام (١) ان قريشاً كانت تقرب قرابينها عند صنمين قرب الكعبة اسماهما « اساف ونائلة » وهما في تقاليد العرب ممسوخان عن رجل وامرأة مما يمكن ان يدل على انهما كانا مخلقين رجلاً وامرأة ؛ كذلك فانه ذكر (٢) ان بعض اصنام العرب كان

(١) ج ١ ص ٨٠

(٢) ١ ص ٧٩

صخرة وهي صنم بني ملكان الذي كان يسمى « سعداً » وهي غير مخلقة .

وعلى كل حال فالنصب والانصاب قد ورد ذكرها في القرآن في صدد العرب مباشره ، وان من المحتمل جداً انهما كانا يطلقان على معبوداتهم المادية المخلقة وغير المخلقة كالاوثان ايضاً .

— ٣ —

اما الاسماء الواردة في القرآن كمعبودات أو أوثان أو اصنام معينة فهي اولاً اللاة والعزي ومناة . وهذه الاسماء وردت في آيات سورة النجم (١٩ — ٢٠) .

وقد ذكر ابن هشام (١) ان العزى كانت لقريش وكنانة ومناة للاوس والخزرج واللاة لثقيف الطائف . وقال الكلبي صاحب كتاب الاصنام (٢) ماملخصه ان مناة كانت اقدم الثلاثة وكانت نصباً منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، ومع ان العرب كانوا جميعهم يعظمونه ويذبحون له فقد كانت الاوس والخزرج اكثرهم له تعظيما وبه اختصاصاً ؛ وان اللاة احدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت في الطائف وسدنتها من ثقيف ، وكان العرب وقريش يعظمونها غير ان اهل الطائف اكثرهم تعظيما لها واختصاصاً بها ، وان العزى احدث الثلاثة وهي شجرة بواد نخلة على بعد تسعة اميال من مكة ، وكانت اعظم الاصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون إليها ويذبحون عندها ، وكان سدنتها بني شيبان ؛ وقد استفاضت الكتب بتسميات عربية بعبودية هذه الآلهة مثل عبد اللاة وعبد مناة وعبد العزى وزيد اللاة وتيم اللاة وعبد مناف لاشخاص كانوا في عصر النبي (ص) وبيئته . على ان هناك رواية (٣) ذكرت ان الآلهة الثلاثة كانت اصناماً مخلقة منصوبة في فناء الكعبة ، ومما قاله اكثر من مفسر إن الحجازيين كانوا يستمطرون بمناة وان اسمها مشتق من النوء وهي الريح الماطرة (٤) .

---

(١) ١ ص ٨٢ هامش وذكر هذا جملة من المفسرين منهم الزمخشري والخازن

(٢) ص ١٣ — ٢٧

(٣) الخازن والطبري والنسفي في تفسير آيات النجم .

(٤) ج ٣ ص ٤٠٨ وج ع ص ٢٤٤ .

واذا كان من المتعذر قول كلمة جازمة في هذه الروايات ونرى الافضل الوقوف منهـــا موقف المتحفظ فان ذكر المعبودات الثلاثة في القرآن خبر حاسم بوجودهـا اولاً ، وعدم شذوذ الروايات في صدد ماديتها يسوغ القول بشيء من الجزم انها معبودات مادية ثانياً ، وورود ذكرها في آيات مبكرة في النزول ، وفي وقت لم يكن قد اتصل النبي (ص) بخارج مكة اتصالاً واسعاً ، وباسلوب الخطاب الموجه الى قريبين او بالاحرى اول سامعي القرآن وهم اهل مكة يمكن ان يلهم ان هذه المعبودات من معبودات المكيين ثالثاً ؛ لاسيما وعدد من القرشيين المعاصرين للنبي (ص) كان يتسمى بها جميعها فاسم ابي طالب هو عبد مناف التي يغلب ان تكون مقلوبة عن مناة ، واسم ابي لهب عم النبي (ص) هو عبد العزى ، وفي أسد الغابة ذكر لصحابيين اسماؤهم أو اسماء آبائهم عبـــد اللاة وزيد اللاة وتيم اللاة ؛ هذا بالاضـافة إلى ما استفاضت به الروايات من حلف قريش وغيرهم من العرب باسم « اللاة والعزى » خاصة . على انه يجوز ان تكون هذه المعبودات معبودات عمومية للعرب جميعهم وفي ذات الوقت اختصت ثقيف باحداها كمعبود خاص واختصت الاوس والخزرج باحداها واختص المكيون باحداها ايضاً .

وهذه الاسماء الثلاثة بصيغة التأنيث . وقد قال غير واحد من المفسرين (١) ان اللاة مؤنث « الله » والعزى مؤنث « الأعز » او « العزيز » ومناة مفعلة من النوء ومقصود به المعبودة الماطرة .

ومضمون آيات النجم (١٩-٢٧) التي نقلناها مدل بقوة على ان بين هذه المعبودات واسمائها وبين الملائكة صلة ما على اعتقاد العرب . فالآيات تستنكر نسبة البنات الى الله كما تستنكر تسمية الملائكة بالاسماء المؤنثة ، وتنبه على ان الشفاعة لن تكون الا من بعد اذن الله ورضائه ، مع الهامها ان مقر الملائكة هو السماوات ، وكل هذا يأتي في سلسلة منسجمة مع الآيتين الأوليين منها التي ذكرت فيها اسماء المعبودات الثلاثة . ولقد ذكرنا في بحث سابق عقيدة الملائكة بنات الله وبانهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى واوردنا الآيات القرآنية التي تتضمن ذلك ؛ فكل هذا يسوغ القول ان المشركين العرب او

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٧٦

فريقاً منهم قد اعتبر هذه المعبودات رموزاً ارضية للملائكة الذين هم في السماوات ، وسموها باسماء التأنيث تبعاً لعقيدتهم بان الملائكة بنات الله وعبدوها وعظموها واستشفعوا بها واتجهوا اليها على هذا الاعتبار ايضاً؛ ولقد رأينا البيضاوي في تفسيره يقول شيئاً من هذا في سياق تفسير آيات النجم حيث قال إن المعبودات الثلاثة ، « هياكل للملائكة » . وقد قال الطبري (١) ايضاً شيئاً مقارباً حيث قال انهم صوروا أصنامهم على صور الملائكة، وزعموا انها بنات الله وعبدوها من دون الله واشتقوا لها اسماء الله فقالوا « اللاة » من الله و العزى من « الأعز » او « العزيز » . هذا؛ ولقد اكتشف في آثار بابل اسم معبود قديم وهو « اللاتو » ، ولا ندري ما اذا كان بين هذا الاسم وأسم « اللاة » صلة ما . ومهما يكن من أمر فاننا نرجح ان لفظ الجلالة واطلاقه على رب العالمين متطوران عن هذا الاسم المعبود . وقول المفسرين إن اللاة مؤنث الله هو نوع من التعبير عما نقول كما هو المتبادر .

— ٤ —

وفي القرآن غير الاسماء المذكورة اسماء خمسة اصنام ذكرت في سورة نوح في سياق حكايه موقف قومه وجداله معهم كما ترى في هذه الآية :

« وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »

نوح ٢٣

والذي يتبادر لأول وهلة أن هذه الاصنام اجنبية عن العرب ، وانما وردت فى القرآن في سياق قصة نوح (ص) وقومه . غير أن روايات السيرة وكتب المفسرين ذكرت مايمكن ان يجعل بين العرب قبل البعثة وبين هذه الاصنام صلات وثيقة ايضاً من حيث التسمية بعبوديتها واتخاذ مسميات لها معبودات معاً . فقد ذكر ابن هشام (٢) ان قبائل هذيل كانت تسمي صنمها « سواعاً » وان قبائل همدان كانت تسمي صنمها « يعوق » وان قبائل مذحج كانت تسمي صنمها « يغوث » وان قبائل

(١) ج ٩ ص ١٧٦

(٢) ج ١ ص ٧٧ واقرأ ايضاً تفسير البيضاوي والطبرسي وغيرهما لسورة نوح . اقرأ ايضاً كتاب الاصنام للكلبي ص ٩ — ١٠

كلب كانت تسمي صنمها « وداً » وان قبائل ذي الكلاع كانت تسمي صنمها «نسراً». كذلك فقد ذكر هو (١) وذكر غيره اسماء اشخاص عديدين معاصرين للنبي (ص) وقبله بقليل كانوا يتسمون باسماء بعض هذه الاصنام وخاصة « عبد ود » و « عبد يغوث » وطبعا لا يمكن ان يكون هذا إلاّ اذا كانت الاصنام معروفة ومعبودة عند العرب .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هذه الاسماء تحمل طابع اللغة العربية ببعض الشيء او في طور من اطوارها بعض الشيء . فيغوث مثلاً متناسب مع الغوث والغيث والاغاثة ، وكل امره انه مضارع ثلاثي غير فصيح ، ومثل هـذا يقال عن يعوق الذي هو كذلك متناسب مع العاقة او الاعاقة والتعويق(٢) ونسر هو اسم الطائر الجارح المعروف من الاسماء العربية الفصحى، واذا لم يمكنا عزو « ود » و « سواع » الى متناسبات فصيحة فان هذا لا يعني انهما منقطعا الصلة بالفصحى بالمرة . ومهما يكن من امر ثم مهما يكن رأينا في التحفظ ازاء الروايات فان هذا التقارب اللفظي بين هذه الاسماء والعربية الفصيحة ثم هذه الروايات عن تسمية الاسماء العربية والاشخاص باسماء هذه الاصنام تسوغ الترجيح بان بعض قبائل العرب كانوا ينعتون اصنامهم واشخاصهم بهذه الاسماء في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة، وبأن هذه التسميات اقدم طوراً من طور اللغة الفصحى القرآنية، ولكن العرب احتفظوا بها كما هي لانها دخلت في نطاق القدسية الذي لا يسهل تجاوزه

— ٥ —

وفي سورة الصافات ذكر اسم « بعل » كصنم او إله في سياق حكاية خطاب الياس (ص) لقومه :

---

(١) ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٥٦ وأسد الغابة . ج ٤ ص ٨٧ و ٢٢٢ . وفي الاخير صحابي اسمه العوام بن جبل المسالمي من همذان ذكر في ترجمته انه كان سادناً للصنم يغوث ج ٤ ص ١٥٣

(٢) بعض مشتقات هذين اللفظين ورد في القرآن ١ — هو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا . ٢ — عام فيه يغاث الناس. ٣ — قد يعلم الله المعوقين منكم.

« وإن الياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلاً وتذرون احسن الخالقين . ١٢٣ — ١٢٥

والذي يتبادر كذلك لاول وهلة ان هذا الصنم او المعبود اجنبي ولا علاقة للعرب به . غير ان صلة هذا الاسم باللغة العربية القرآنية تستوقف النظر ، حيث ورد في القرآن كناية عن الزوج كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن احق بردهن في ذلك إن ارادوا إصلاحا .

البقرة ٢٢٨

٢ — وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب. قالت ياويلتي أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عجيب .

هود ٧١ — ٧٢

وفي التراكيب العربية يكنى الزوج بكنيتي « رب العائلة » و « رب البيت » وهذا متصل من جهة بدلالة « بعل » في العربية واطلاقه على الزوج ، ومن جهة اخرى بمعنى الربوبية التي كان يعتقدها قوم الياس (ص) في المعبود « بعل » كما هو المتبادر .

وبعل كما هو معروف من معبودات بلاد الشام الرئيسية قبل الاسلام بمدة طويلة وكان يمثل بصنم مخدَّق ، ولا تزال الكلمة تطلق في هذه البلاد الى اليوم على الارض التي تسقى بماء المطر فقط ؛ فكأنما هذه التسمية موروثة عن تقليد قديم يراد به الاشارة الى الزرع الذي يرويه الله بماء السماء مباشرة .

فهل من التجوز ان يفترض ان الكلمة دخيلة على العربية من قبل البعثة بامد ما قد لا يكون قصيراً ، وان يفترض انها جاءت من بلاد الشام ، وانها لم تجيء وحدها وانما جاءت مع مسماها ؟ اي ان يكون المعبود الشامي « بعل » قد دخل كصنم الى بلاد العرب او الى بلاد الحجاز ، وانه كان من المعبودات العربية فاستعير اسمه لاطلاقه مجازاً على الزوج باعتباره سيد العائلة او رب العائلة ؟ اما نحن فانا لا نرى في هذا تجوزاً بل ونرجح امكانه وحدوثه فعلاً . واذا كانت الكتب والروايات

العربية لم تذكر فيما اطلعنا عليه معبوداً أو صنماً للعرب اسمه « بعل » فاننا لا نرى في ذلك هدماً لهذا الفرض وصحته . فانه لن يجادل احد في ان أسماء كثير من أصنام العرب لم تنقلها الروايات ولم تدونها الكتب التي وصلت الينا .

ولقد جاء في ابن هشام (١) حكاية عن عمرو بن لحى وانه رأى اهل الشام يعبدون اصناماً ويستنصرون ويستسقون بها فحمل واحداً منها واتى بها الى مكة ووضعه في الكعبة ، وان هذا الصنم هو « هبل » وان هذا كان أول دخول عبادة الأصنام الى بلاد العرب وأولها . وفي ما عدا القول بان عمرو بن لحى هو الذي كان أول من أدخل عبادة الأصنام الى بلاد العرب وان أول صنم فيها كان « هبل » ـ لانه من الصعب جداً أن لم نقل من المستحيل التأكد من هذا الاوليات او التسليم بها ـ فاننا نرى الفكرة في الرواية معقولة ، وانه من الممكن ان يكون بعض زعماء العرب قد أعجب في رحلة له في بلاد الشام باحد الأصنام اما لشكله وصورته ، واما بسبب حادث خارق وقع له اوروي له منسوباً الى كرامة هذا الصنم فحمل نسخة منه الى مكة ووضعه في الكعبة ودعا الناس الى عبادته .

ومن الروايات المتواترة انه كان لقريش صنم اسمه « هبل » وانه كان من الأصنام المهمة عندهم حتى انهم هتفوا باسمه في غزوة أحد المرأو انفسهم قد انتصروا على المسلمين فيها ؛(٢) وان قريشاً كانت تستقسم عنده بالقداح في مشاكلها واستخارتها على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . فاذا كان وقع ان احد زعماء العرب اتى بصنم من بلاد الشام ـ وهو ما لا نستبعده ـ وان هذا الصنم هو هبل هذا فلماذا لا يكون قد وقع تحريف ما في النقل او في التسمية الأولى . فالصنم الشامي المعروف هو « بعل » وليس « هبل » واللفظان متقاربان في الوزن ، وفيها حرفان مشتركان ، والأعاجم يلفظون « العين » « هاء » او ما يقرب منها كما لا يخفى ، فيكون الحرف الثالث كذلك مشتركا او شبه مشترك ، والقلب والابدال سنة معروفة في اللغات وفي اللغة العربية ؛ وقد رأيت مدى معنى كلمة « بعل » في اللغة العربية الفصحى ، ولقد قال

---

(١) ج ١ ص ٧٦ .

(٢) ج ٢ ص ٣٧٧ ابن هشام .

بعض المستشرقين (١) ان هبل محرفة من هابئل « و ها » هي اداة التعريف في العبرانية والكنعانية حيث كان يعبد بعل، وسقوط العين احتمال قريب وبعد سقوطها تصبح الكلمة « هابل » او « هبل » وهذا تخريج معقول لتطور انتقال كلمة بعل التي ربما كانت تلفظ بئل الى « هبل »

وقد يرد على هذا سؤال ؛ وهو كيف وجد لفظ « بعل » في اللغة الفصحى منقولا عن الاسم الشامي القديم بعينه ؟ والذي نرجحه أن لفظ بعل ليس هو نص الأسم واصله في بلاد الشام قبل البعثة وانما هو تعريب ، وان استفاضة اللفظ في الكتب والالسنة واطلاقه بنصه « بعل » على المعبود الشامي مما يمت الى التعريب اكثر مما يمت الى اصل لفظه الذي يرجح انه هابئل . ولا ينقض هذا ان يكون الصنم القرشي قد احتفظ باسم « هبل » فمن الممكن ان يكون انتقل من الشام « هابئل » واختصر على هبل وصار مقدساً لا يصح ان يغير ويبدل فيه ؛ وليس هذا شأن الفاظ اللغة بطبيعة الحال .

— ٦ —

وقد ورد في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الطاغوت وعبادتها . منها ما هو مكي ومنها ما هو مدني . وفي احدى الآيات المدنية ذكر الطاغوت مع الجبت كما ترى في الآيات التالية :

١ — لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت

---

(٢) تاريخ الأسلام لكاياتاني الترجمة التركية . ح ١ وقد ذكر الكلبي عن صفة هذا الصنم انه كان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب وخالف ابن هشام في امر أولية هذا الصنم حيث ذكر ان أول من نصبه هو خزيمة بن مدركة فكان يقال له هبل خزيمة (ص ٢٨)

يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ...
البقرة ٢٥٦ - ٢٥٧

٢ — ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . النساء ٥١

٣ — ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيداً . النساء ٦٠

٤ — الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ... النساء ٧٦

٥ — قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . المائدة ٦٠

٦ — ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ...
النحل ٣٦

٧ — والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى .
الزمر ١٧

فما هو هذا الجبت والطاغوت الذين آمن بهما فريق اليهود والطاغوت الذي امر الله الناس ان تجتنب عبادته والذي يخرج من النور الى الظلمات ويقاتل الكفار في سبيله والذي عبده فريق من اليهود ؟

ولقد تعددت اقوال المفسرين وروايتهم في ذلك ، فمنهم (١) من روى انهما اسما صنمين لقريش ، حيث طلب القرشيون من الوفد اليهودي الذي ذهب لعقد حلف ضد النبي ان يقسموا عندهما ويسجدوا لهما ؛ ومنهم (٢) من قال إن الجبت فقط هو اسم صنم لقريش وان الطاغوت بمعنى شديد الطغيان على وزن فعلوت كملكوت وجبروت، وانه كان يطلق على الشيطان وعلى كل من كان شديد البغي من الكفار،

(١) الخازن والطبرسي والبيضاوي في تفسير آية النساء (٥١) مثلا
(٢) الطبري والكشاف في تفسير آية النساء (٦٠) مثلا .

وأن الكلمة في آية النساء (٦٠) قد عنت أحد زعماء اليهود البغاة كعب بن الأشرف، ومنهم [١] من قال إن الجبت والطاغوت هما كل ما يمت الى الشرك بسبب من أصنام وأوثان وانصاب ومن عبادة وولاء واستشفاع واستخارة ؛ وقد ذكر في سياق هذا القول حديثاً عن النبي (ص) فيه ذكر للجبت جاء فيه :

«العيافة والطيرة والطرق من الجبت» .

ويلفت النظر الى ان آية النساء (٧٦) قد ذكرت الشيطان والطاغوت معاً وجعلت الشيطان بدلا من الطاغوت كأنما اللفظان مترادفان. فهذا من جهة ومحصل اكثر الاقوال من جهة أخرى في جانب عمومية اللفظين اكثر منها في جانب كونهما اسمين لصنمين لقريش وبتعبير ادق في جانب الرأي الاخير القائل إنهما كنايتان عن الشرك والوثنية والاتجاه لغير الله . وهذا ما ترتاح اليه النفس وتلهمه الآيات بصورة عامة وخاصة بالنسبة الى لفظ الطاغوت الذي تعدد وروده في صدد التنديد بعبادة غير الله . وآية النحل (٣٦) المكية تؤيد رأي عمومية معنى الطاغوت وبوضوح اكثر وتحمله معنى الشرك والعبادات الباطلة ، وكذلك آية الزمر (١٧) ايضاً . واليهود الذين ذكروا في آية المائدة (٦٠) بأنهم عبدوا الطاغوت في دور من ادوارهم انما عبدوا العجل وبعل والاصنام كما ذكرته اسفار التوراة ، وهذا يؤيد كذلك بقوة كون الطاغوت لفظاً عاماً يعني الشرك والوثنية والعبادات والعقائد الباطلة . ومما يمكن ان يضاف الى هذا ويؤيده ان روح الآيات جميعها تلهم ان الطاغوت والجبت ليسا اسمين وانما هما نعتان ونعتا تشنيع وذم . وهذا يبدو خاصة في لفظ الطاغوت الذي ذكر المفسرون انه مشتق من الطغيان .

— ٧ —

ولقد ذكر ابن هشام [٢] انه كان للعرب بيوت يعظمونها ويهدون اليها الهدى ويطوفون حولها ويضعون أصنامهم فيها ، وان هذه البيوت كانت تسمى طواغيت جمع طاغوت وانه كان لهذه البيوت سدنة وخدام ؛ وقد سمى بن هشام اسماء بعض

(١) الخازن في تفسير آيتي النساء (٦٠ و ٧٦) مثلا .

(٢) ٠ ح ١ ٨١

البيوتات التي كانت سدانة بعض هذه الطواغيت فيها ، وانها ظلت الى أن تم الفتح الاكبر فارسل النبي (ص) من هدمها ، ومما قاله كذلك إن العرب كانوا الى ما كان لهم من هذه البيوت الخاصة في منازلهم يعترفون بفضل الكعبة ويعتبرونها البيت الأكبر الذي يجب حجه . وقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام (٢) شيئاً من هذا دون ان يذكر ان هذه البيوت كانت تسمى طواغيت بل ذكر اسم الكعبة لبعضها . ومعلوم من الروايات المتواترة انه كان يوضع في داخل الكعبة وفي فنائها اصنام عديدة يعظمها اهل مكة وسائر العرب معاً . فهذه الروايات تساعد على الاستئناس والقول إنه كان للعرب كعبات محليه وكعبة عمومية كما كان لهم آلهة او اصنام محلية واخرى عمومية. غير اننا نرجح ان تسمية تلك الكعبات بالطواغيت التي انفرد بذكرها ابن هشام لم تكن التسمية التي يطلقها أصحابها عليها لأن في الكلمة كما قلنا نعتاً ذمياً لا يعقل ان تطلق من قبل أصحاب الكعبات على كعباتهم وانما هي تسمية أسلامية ، وان التسمية الشائعة كانت الكعبة كما ذكر ذلك صاحب كتاب الأصنام ولو انه ذكر التسمية مضافة الى بعض البيوت دون بعض .

---

(١) ص ١١ و ١٩ و ٢٠ و ٤٤ و ٤٥ ومما ذكره انه كان لحمير بصنعاء بيت يقال له رئام وانه كان لبني ربيعة بيت يقال له رضي وكان لبني الحارث كعبه بنجران ولأياد كعبة بسنداد بين الكوفة والبصرة .

الفصل الثالث

في الملائكة وعقائد العرب فيهم

حفاوة القرآن بالملائكة — تصنيف الآيات حسب المواضيع — اشتقاق كلمة الملائكة — ماهية الملائكة في ذهن العرب — الآيات المتصلة بعقائد العرب في الملائكة ودلالاتها — عقيدة الملائكة بنات الله — عبادتهم والاستشفاع بهم — قدم العقيدة العربية فيهم — اللاة والعزى ومناة رموز لهم — العرب والتجريد في العقيدة — عقيدة العرب بالملائكة خطوة دينية تطورية — صلة العقيدة بالكتابيين — الآيات في تحدي العرب بالملائكة ومداها ودلالتها — الآيات عن مكانة الملائكة — دلالتها أسلوباً ومضموناً وكثرة — قصة سجود الملائكة لآدم وهدفها — استدلال على معرفة العرب للقصة قبل البعثة — الآيات الايمانية عن الملائكة — ما يمكن أن يستدل عليه من الآيات واسلوبها .

— ١ —

أشرنا في الفصلين السابقين إشارات مقتضبة إلى الملائكة وعقائد العرب فيهم . ولهذا الموضوع خطورة تقتضي ان يمعن النظر فيه ، وينظر في الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الملائكة بانعام ، فقد ذكرت الملائكة في عدد كبير من الآيات ، وبحفاوة واهتمام وأساليب ومواضيع متنوعة ، وهذا مما يزيد في خطورة موضوعهم ايضاً.

ومن الممكن تقسيم المواضيع التي ذكر فيها الملائكة أو بالاحرى تصنيف آياتها إلى أربع مجموعات :

الاولى ماله صلة بأديان العرب وعقائدهم .

الثانية ماحكي فيه عن تحدياتهم في صدد الملائكة .

الثالثة ما احتوى بيان فخامة مركز الملائكة عند الله من جهة وتوكيد عبوديتهم له من جهة اخرى .

الرابعة ما فيه تقرير لعقيدة الإيمان بالملائكة وما يقومون به من أعمال وخدمات لله.

والموضوعان الثاني والثالث لهما علاقة بالموضوع الأول ، او فيهما ترديد لصداه، ودلالة على ما كان في أذهان العرب عن الملائكة ، وردّ على ما كانوا يعتقدونه فيهم . والموضوع الرابع وإن كان موضوعاً إيمانياً فانه هو الآخر لا يخلو من صلة ما بالموضوع الأول ؛ إذ فيه إقرار لوجود ومركز الملائكة مع تصحيح لما في الأذهان عنهم من عقائد ومفهومات ناقصة او مغلوطة .

— ٢ —

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نود ان نقول كلمة فيما يعنيه لفظ « الملائكة » وما يمكن أن يكون العرب قد فهموه من هذه التسمية ومن ماهية الملائكة .

لقد قال جمهرة من المفسرين(١) في صدد الآية (٣٠) من سورة البقرة أن الكلمة مشتقة من الألوكة » أي « الرسالة » . وقال بعضهم(٢) إنها مشتقة من « المُلْك » وان الميم فيها أصلية . ويرى بعض الباحثين أنها مشتقة أو متطورة من جذر « مَلَك » الموجود في اللغات السامية على اختلاف في نطقه .

وفي القرآن آيات تشير إلى مهمة الرسالة التي كان يحملها الملائكة عن الله مما يمكن أن يستأنس به في تصويب اشتقاق الكلمة من الألوكة كما ترى في الامثلة الآتية:

١ — ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ... النحل ٢

٢ — الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ... الحج ٧٥

٣ — الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ... فاطر ١

ومع أن من الأصوب ان يقبل ما عليه الجمهور من اشتقاق الكلمة من الألوكة لاسيما ويعضد ذلك او يستأنس عليه بالآيات التي نقلناها ، وكثير من آيات القرآن وألفاظه يفسر بعضها بعضاً وهو الحجة اللغوية الصادقة في العربية، فاننا لا نرى كبير

(١) الطبري والرازي والخازن والنسفي وابو السعود والبيضاوي مثلاً

(٢) الطبري مع روايته اشتقاق الكلمة من الألوكة ايضاً .

أهمية في إرجاع اشتقاقها الى جذر « الملك » السامي ، لأنه لايبعد أن يكون هـذا الجذر يحمل نفس المعنى الذي أشار اليه المفسرون اولاً ، ولأن ورودها في القرآن قد جعلها تدخل في معجم اللغة العربية ومفرداتها قبل البعثـة كعلم على صنف من عباد الله وهم « الملائكة » ثانياً .

ومهما يكن من أمر فان مما لاشك فيه أن العرب كانوا يعتقدون بوجود الملائكة الذين اطلقوا عليهم هذه التسمية علماً ، وباتصالهم مع الله ، وبأن الله هو الذي يرسلهم إلى الناس ، واعتقاد العرب بوجودهم مؤيد بالدرجة الأولى بوجود هـذه التسمية في لغتهم ،عدا مافي القرآن من آيات كثيرة تحكي عقائدهم فيها ومنها وجودهم. واعتقاد العرب باتصالهم بالله مؤيد بآيات قرآنية عديدة حكت تحديهم النبي (ص) باستنزال الملائكة لتأييد نبوته إن كانت من الله حقاً كما ترى في الآيات التالية :

١ — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... الأنعام ٨

٢ — فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ... هود ١٢

٣ — وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ... الحجر ٦-٧

٤ — وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعـام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ... الفرقان ٧

هذا فضلاً عن ماينطوي في عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله من تأييد ذلك أيضاً.

— ٣ —

هذا عن التسمية ودلالتها . أما عن الخلقة والمنشأ ففي القرآن آيات تحكي اعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله مثل آيات الصافات ١٤٩ — ١٥٥ التي نقلناها في فصل سابق ،عدا ما هناك من آيات عديدة في نفس الصدد سنستعرضها في ما بعد .

وقد جاء في القرآن آية حكت جعل العرب بين الله والجن نسباً وهي هذه :

«وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون... الصافات ١٥٨

وقد قال المفسرون(١) في تفسيرها إن العرب كانوا يعتقدون أن الله سبحانه قد

(١) الطبري والخازن وغيرهما .

أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهم ؛ ومما يمكن أن يوجه هذا القول أن الآية جاءت عقب السلسلة التي حكت عقيدة العرب بأن الملائكة بنات الله ونددت بهم من اجل ذلك وهي الآيات (١٤٩ — ١٥٥) التي أشرنا اليها وثلاث آيات اخرى فيها استمرار في التنديد والافحام أي انها من نفس السلسلة كما ترى :

« أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ... الصافات ١٥٣-١٥٧

أما عن الماهية فليس في القرآن مايمكن الاستدلال به على عقيدة العرب فيها . غير أن بعض المفسرين روى في صدد آية البقرة (٣٠) حديثاً نبوياً مفاده ان الملائكة خلقوا من النور . ومع التنبيه على عدم إمكان القول بجزم بأن العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ذلك قبل البعثة استناداً الى هذا الحديث فان اعتقاد العرب بصلة الملائكة بالله وبولادتهم منه يحمل على الترجيح بأنهم او بأن فريقاً منهم كان يعتقد بنورانية الملائكة او بأنهم غير ماديين . ولعل في عقيدتهم بولادتهم من المصاهرة بين الله سبحانه وبين الجن مايستأنس به على عقيدة النورانية . فالقرآن قد ذكر أن الجن خلقوا من النار ولا نستبعد إن لم نقل نرجح ان العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل البعثة فتكون مصاهرة الله سبحانه للجن على زعمهم قد صفت النار حتى صارت نوراً فكان هذا النور الآلهي هو الملائكة. ومع ذلك فان طلبهم الاتيان بهم واستنزالهم عليهم مما حكته آية في سورة الاسراء :

« او تأتي بالله والملائكة قبيلاً ... ٩٢

وآية في سورة الفرقان :

« وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ٢١

لما يمكن ان يلهم أنهم كانوا يتخيلونهم اجساماً يمكن ان يراها الناس ماثلة أمامهم ايضاً .

— ٤ —

واليك الآن آيات الصنف الاول المتصل بأديان العرب وعقائدهم بالملائكة :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون. وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل

وجهه مسوداً وهو كظيم ... النحل ٥٧-٥٨

٢ — أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً الاسراء ٤٠

٣ — آيات سورة الأنبياء ٢٦ - ٢٩ التي نقلناها في فصل سابق .

٤ — ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ... سبأ ٤٠-٤١

٥ — آيات الصافات (١٤٩-١٥٩) التي نقلنا بعضها في الفصل السابق وبعضها قبل قليل .

٦ — وجعلوا له من عباده جزءاً إن الانسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ... الزخرف ١٥-٢٢

٧ — آيات سورة النجم ١٩-٢٧ التي نقلناها في فصل سابق .

فهذه الآيات تدل :

اولاً على أن العرب او فريقاً منهم كان يعتقد بأن الملائكة بنات الله . وفي آيات سورة الاسراء والنحل والزخرف والصافات والنجم مساجلة استنكارية لزعمهم هذا حيث تقول للعرب على سبيل المساجلة والتبكيت كيف تجوزون على الله ان يكون اولاده بنات بينما تعتبرون البنات أدنى من البنين وتكرهونهن هذا الكره الشديد في حين انه إذا جاز أن يكون له أولاد فالمعقول ان يتخذهم من المرتبة العليا.

وثانياً على ان العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويتقربون الى الله بهم استشفاعاً بهم لأنهم بنات الله ولهم حظوة لديه. على أن الآيات في هذا الصدد متنوعة المضمون ،

فمنها مافيه الدلالة على اتخاذ الملائكة شفعاء ،ومنها ماذكر فيها عبادة العرب لهم دون إشارة الى ماهية العبادة وصفة هدفها ؛ أي ما اذا كانت عبادة أصلية او عبادة استشفاع . وهذا التنوع يجعلنا نقول إن من المحتمل ان يكون هناك من كان يعبد الملائكة عبادة أصلية اشراكاً مع الله ومنهم من كان يعبدهم عبادة استشفاع . واذا صح هذا فالمرجح ان تكون عبادة الاستشفاع قد جاءت متأخرة وكخطوة تطورية الى الاعتراف بكون الله هو الاله الأعظم وبكون الملائكة إنما هم وسائل وشفعاء؛ وطبيعي ان يكون المستشفعون من الطبقة الأكثر استنارة واحتكاكاً بالعالم وخاصة بالكتابيين ، كما ان وجود هذا التنوع سائغ كنتيجة للتفاوت الذهني بين بيئة النبي (ص) وعصره على ما نبهنا على هذا وذاك في مناسبة سابقة .

وثالثاً على ان عقائد العرب في الملائكة موروثة عن الآباء او بكلمة اخرى ليست حديثة عهد ، حيث تنص على استمساكهم بها لأنهم وجدوا آبائهم عليها من قبل وهم مهتدون بهديهم (آية الزخرف ٢٢)

ورابعاً على ان الذين كانوا يؤلهون الملائكة ويعبدونهم او أن فريقاً منهم كانوا يعتبرون اللاة والعزى ومناة رموزاً وهياكل مادية في الأرض للملائكة الذين هم في السماء ،ويعظمونها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ويذبحون لها على هذا الاعتبار. وننبه على ان آيات النجم التي تلمهم هذا هي التي تلمهم في الوقت نفسه ان الذين يعتقدون بصلة هذه المعبودات بالملائكة كانوا من الطبقة التي اتخذت الملائكة شفعاء.

وخامساً على ان اتخاذ رموز مادية للملائكة من قبل العرب يمكن ان يدل ايضاً على عقيدتهم بان الملائكة غير ماديين وغير مرئيين ، وان ايمانهم بهم غيبي وتجريدي ، كايمانهم بالله الذي هو ابوهم على زعمهم سبحانه . إذ ان التطور الديني لم يكن بعد قد بلغ فيهم مبلغاً يجعلهم يكتفون بهذه العقيدة الغيبية التجريدية فاتخذوا هذه الرموز المرئية كحلقة متوسطة بين العقيدة الغيبية التجريدية والعقيدة المادية. والذي نرجحه أن الذين كان لهم معبودات مادية غير المعبودات الثلاثة خصوصية وعمومية وكانوا يعترفون بالله كاله أعظم في نفس الوقت إنما كانوا يفعلون ذلك لذات السبب أيضاً .

وسادساً على ان عقائد العرب وتفكيرهم الديني لم يكن قاصراً على الجمادات

والأحجار ! ولم يبقوا على ذلك على الأقل كما حاول ان يوهمه الرواة والكتاب القدمون وجاراهم بعد ذلك بعض الكتاب الحديثين من المسلمين ايضاً (١) .

(١) نذكر اننا قرأنا لأحد علماء العرب مقالاً في مجلة الثقافة المصرية حاول الكاتب ان يؤكد ان العرب في جاهليتهم كانوا وضيعين في تفكيرهم الديني وأن الاحجار هي التي كانت مظهر عبادتهم وتفكيرهم الديني، وقايس بين هذا وبين ما كان عليه تفكير اليونانيين الديني من الارتفاع الى السماء وتخيل معبوداتهم فيها وكونها رموزاً او آلهة للقوى الطبيعية . وكان في هذا المقال حط مقصود كما خيل لنا لأفكار العرب وقصور خيالهم ،وانحصاره في المادة والأحجار على عكس ما كان عليه اليونانيون . والآيات الواردة في القرآن عن عبادة العرب للملائكة وجعل معبوداتهم المادية رموزاً وتخيل الملائكة بنات لله ، ينقض ذلك؛ فكما ان اليونانيين تخيلوا آلهتهم في السماء وتخيلوا ان بعضها جاء نتيجة اتصال زواجي بين بعض الآلهة الأبطال وبين بعض النساء الآدميات او الألاهات تخيل العرب ؛ وكما ان اليونانيين اتخذوا لآلهتهم رموزاً من الأصنام او هياكل لها فعل العرب ذلك . ولعله لو وصل الينا شيء مكتوب في ذلك العصر غير القرآن وقبله لرأينا أشياء كثيرة عن تخيلاتهم الدينية كما روي عن اليونانيين في الكتب التي وصلت الينا من عهدهم وكتبت في عصورهم او في عصور مقاربة لعصورهم ووصفت فيها هياكلهم وآثارها وكتاباتها . ومع أن ما في القرآن عن الملائكة وعقائد العرب فيهم من الأشياء الكثيرة وكذلك عن الجن كما سيأتي في الفصل الثاني انما جاء بسبيل التنديد ومحاربة الشرك والوثنية والعقائد الباطلة وتنكيس أعلامها وطمس معالمها ، وهو بعد ليس كتاب تاريخ وفن واحصاء ووصف فلم تقتض الحكمة ان يكون فيه معلومات واوصاف واسعة عن عقائد العرب وتخيلاتهم ، فان من الممكن القياس على مافيه وتكبيره ، وحينئذ يمكن ان يرى المرء كما قلنا صوراً طريفة حقاً تجعل من السائغ ان يسلك العرب بها في سلك غيرهم في التفكير الديني وتطوره ، وتجعل من غير السائغ ان يعدوا من هذه الناحية في طور بدائي مما يحكى عن الامم المتوحشة في افريقية وغيرها .

— ٥ —

ويتبادر لنا أن عقيدة العرب بالملائكة من حيث اصلها اشراكاً او استشفاعاً او اعتقاداً بوجودهم وصلتهم بالله هي خطوة تطورية ، ولعلها خطوات أولاها اعتقادهم بوجودهم ثم بألوهيتهم ثم ببنوتهم لله وعبادتهم شركاء ثم شفعاء . ولعل من الصحيح أن يفرض أن العقيدة العربية كانت في بادىء امرها وثنية او عبادة قوى طبيعية غير محددة او الاثنتين معاً وحيث تكون الأولى رموزاً للثانية ؛ ثم تطورت الى الشعور بقوى الأذى والشر الخفية التي عبر عنها بالجن وبقوى البر والخير والرحمة التي عبر عنها بالملائكة ثم انبثق معنى الله او وصل اليهم هذا من اخبار الامم العربية البائدة وانبيائها واهل الكتاب ، غير انه لم يكن واضح المدى ، فتطورت عقيدة الوهية الملائكة ، عبادتها فصاروا حلقة متوسطة بين الله شركاً او استشفاعاً . وواضح انه ينطوي فى هذا التطور إنتقال الى العقيدة التجريدية بعد العقيدة المادية مع الاحتفاظ بمظاهر هذه العقيدة في المعبودات المادية التي كانت منتشرة سائدة تعظم وتشرك في الدعاء والاتجاه والعبادة ويذبح لها ، اصلاً أو استشفاعاً الى جانب عقيدة وجود الله كآلهة اعظم ووجود الملائكة كبنات الله لهم عند الحظوة ، ولهم التأثير في النفع والضر والمنع والاعطاء . وقد جاء الاسلام واكثرية العرب الساحقة في هذا الطور مع التفاوت الذي كان طبيعياً في بيئتهم من حيث الحضارة والبداوة والاتصال والعزلة .

— ٦ —

وفي آيات الصافات والزخرف سئل العرب عما إذا كان لديهم سند من كتاب لعقيدتهم بكون الملائكة اناثاً وبنات لله . وهذا السؤال جعلنا نتساءل عما اذا كان من قبيل التحدي والتهكم والاستخفاف فقط أو أن المعتقدين كانوا يزعمون انهم على حق في عقائدهم وان الكتب السماوية قد أيدتها ؟ واذا كان فرض هذا الزعم صحيحاً فهل سمعوا شيئاً من الكتابيين عن شفاعة الملائكة وحظوتهم عند الله فالتبسوه وكيفوه في اذهانهم الى ان انتهى الى عقائدهم التي اشارت اليها الآيات ؟ والذي نرجحه ان الكتابيين كانوا مصدراً رئيسياً لمعلومات العرب وتخيلاتهم وعقائدهم في الملائكة ،

ولعل من الجائز ان يقال ان تسمية قوى الخير والبر والرحمة الخفية التي كان العرب يعتقدون بها ويرجون عطفها وعونها بالملائكة قد كان أثراً من آثار هذا المصدر. فقد كان علم الكتابيين بالملائكة وصلتهم بالله ورسالاته وخدماته قديماً جداً الأن ذلك مما ذكر في أسفار التوراة والانجيل ؛ وقد كانوا يتخذونهم شفعاء كما تلمح بعض آيات سورة آل عمران :

«ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد أذ أنتم مسلمون..

آل عمران ٧٩ – ٨٠

حيث تلمح انها في صدد جدل بين النبي (ص) وبين بعض الكتابيين حول تعظيم الانبياء والملائكة تعظيما يقرب من العبادة ، ويجعلهم كانهم أرباب أو أدنى الى الربوبية والاستشفاع بهم استشفاع المعتقد بتأثيرهم .

فمن الجائز والحالة هذه ان يكون العرب قد قالوا إن الكتب السماوية تؤيد عقائدهم على اعتبار ان الكتابيين على شيء منها فتحداهم القرآن بأثبات ذلك على ما المعنا اليه .

— ٧ —

ونأتي الآن الى الآيات المتعلقة بالموضوع الثاني :

١ — من هذه الآيات ما نقلناه سابقاً وهو آيات الأنعام (٧) وهود (١٢) والحجر (٦ – ٧) والفرقان (٧) .

٢ — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً او تأتي بالله والملائكة قبيلا ..

الأسراء ٩٢

٣ — وقال الذين لا يرجون لقاءنا لو لا أنزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيراً ... الفرقان ٢١

فهذه ايات وان كانت تحكي أقوال العرب التعجيزية والتهكمية فانها تدل على انه كان للملائكة في اذهانهم او اذهان فريق منهم على الاقل في عصر النبي (ص)

وبيئته مكانة او صورة عظيمة خارقة ، عدا دلالتها على اعتقادهم بوجود الملائكة وصلتهم بالله ، فكانوا يطلبون من النبي (ص) تأييد دعواه بالنبوة ودعوته التي يبلغها عن الله بملائكة ينزلهم الله اليه او ينزلهم عليهم ليروهم ماثلين أمامهم . والمعنى الاول واضح بنوع خاص في آيات الحجر ، حيث تلهم ان المشركين قالوا للنبي (ص) إنك تدعي ان الذكر ـ اي القرآن ـ ينزل عليك من الله فان كنت صادقاً فأتنا بالملائكة الذين هم ذووا اتصال بالله ، المبلغون عنه . اما المعنى الثاني فهو واضح في آيات الأسراء ١٢ والفرقان ٢١ .

—٨—

وهذه هي آيات الموضوع الثالث :

١ — قل من كان عدواً لجبريل فأنه نزله على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ... البقرة ٩٧ ٩٨

٢ — إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ... البقرة ١٦١

٣ — هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر والى الله ترجع الامور ... البقرة ٢١٠

٤ — شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ...

آل عمران ١٨

٥ — إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ... آل عمران ١٢٤ — ١٢٥

٦ — لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ...

النساء ١٦٦

٧ — لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون.

النساء ١٧٢

٨ — إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... النساء ٩٧

٩ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ... الأنعام ٥٠

١٠ — ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا ان يشاء الله ... الأنعام ١١١

١١ — أذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ... الانفال ١٢

١٢ — ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ... الأنفال ٥٠

١٣ — الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء. النحل ٢٨

١٤ — الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون . هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ... النحل ٣٢ ـ ٣٣

١٥ — ولله يسجد ما في السماوات والارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ... النحل ٤٩ ـ ٥٠

١٦ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ... الاسراء ٩٤ ـ ٩٥

١٧ — وما نتنزل (١) إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ... مريم ٦٤

---

(١) الجمهور على ان هذا من كلام الملائكة

١٨ — إن الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ... الاحزاب ٥٦

١٩ — هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور .. الاحزاب ٤٣

٢٠ — وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ... الزمر ٧٥

٢١ — الذين يحملون (٢) العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ... غافر ٧

٢٢ — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... فصلت ٣٠ — ٣١

٢٣ — تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ... الشورى ٥

٢٤ — ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون ... الزخرف ٦٠

٢٥ — يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ... التحريم ٦

٢٦ — والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ... الحاقة ١٧

٢٧ — تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة . المعارج ٤

٢٨ — يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ... النبأ ٣٨

---

(٢) الجمهور على ان المقصودين هم الملائكة

في هذه الآيات وقد اكثرنا منها بقصد لفت النظر الى ما أسبغ على الملائكة من خطورة ، تنويه بالملائكة ومنزلتهم عند الله من ناحية ، وتوكيد لعبوديتهم من ناحية ثانية ؛ وفيها ردّ على اقوال العرب وتحديهم وتهكمهم وتصحيح لما في أذهانهم من انحراف في اتخاذهم آلهة او شفعاء من ناحية ثالثة ؛ كما ان فيها من ناحية رابعة وعلى مايتبادر لنا تثبيت لما في أذهانهم عنهم من عظمة وفخامة وعلوّ قدر واتصال بالله ايضاً .

فالله عدو لأعداء الملائكة ، وهم عنده يحملون عرشه ، ويحفّون حوله ويسبحون بحمده ، ولا ينزلون إلا في ماعظم من الأمور ، ويشهدون مع الله على صحة ماأنزل على النبي (ص) من قرآن وحمل من رسالة ؛ وهم يثبتون المؤمنين في جهادهم ويصلون عليهم مع الله ، ويتلقونهم حين الوفاة بالبشرى والتحية والتكريم ويستغفرون لهم في حين أنهم يعاملون الكفار عند وفاتهم بالغلظة والقسوة والشدة ويتلقونهم في الآخرة بمثل ذلك ويلعنونهم مع الله ؛ ومع كل ذلك فهم بصورة عامة والمقربون منهم في المقدمة لايستنكفون عن عبادة الله والخضوع له ، ويعرفون حدودهم فلا يتكلمون إلا بأذنه ورضائه ...

فهذه التقريرات عن الملائكة تلهم كما قلنا أن لهم في اذهان العرب صورة قوية مستقرة من علو المنزلة وعظمة الشأن ، وتثبت شيئاً مفهوماً مستقراً عند العرب الذين كانوا أول المخاطبين بالقرآن سواء منهم المسلمون والكفار ؛ وقد أريد كما يتبادر لنا ايضاً تقرير عدم إمكان شفاعة الملائكة للمشركين وإن عبدوهم واستشفعوا بهم ، وإنما سيكونون نقمة وشراً عليهم ، وإنهم مهما علت منزلتهم وعظمت اقدارهم لايخرجون عن كونهم عبيداً خاضعين لله لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون[1] ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون . وهذه التقريرات إنما تكون أقوى تأثيراً حينما تقرر لأناس قد شغلت الملائكة حيزاً كبيراً في اذهانهم بطبيعة الحال .

---

(١) آيات سورة الأنبياء ٢٦-٢٩

ومما هو جدير بالتنبيه استطراداً وبصورة خاصة تكرر ذكر قصة آدم وسجود الملائكة له ، وفي السور المكية بنوع خاص كما ترى في مايلي :

١ — ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... الأعراف ١١

٢ — وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون... الحجر ٢٨-٣٠

٣ — وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... الاسراء ٦١ والكهف ٥٠

٤ — وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ... ص ٧١-٧٣

ففي هذا التكرار معنى توكيد عبودية الملائكة لله ، وكونهم لم يستنكفوا عن السجود لآدم الذي خلق من تراب تنفيذاً لأمر الله . ونرجح انه توخى في هذا ايضاً رد على ما كان المشركون يعتقدونه من صفات الالوهية والربوبية في الملائكة.

ولقد وردت هذه القصة في سورة البقرة بأسلوب آخر كما ترى في مايلي :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ... البقرة ٣٠-٣٤

فهذه الآيات وما فيها من حوار يدل من جهة على مكانة الملائكة من الله وتثبتها من جهة ، كما تستهدف تقرير عبوديتهم له ومعرفتهم حدودهم إزائه من جهة أخرى؛ مما استهدف في الآيات الأخرى على ماذكرناه قبل قليل .

ومما يحسن اضافته انه ليس في آيات البقرة والسور الأخرى ولا في أسلوبها مايفيد أن العرب يسمعون هذه القصة لأول مرة مما يمكن ان يلهم انها تقرر شيئاً معلوماً عندهم ،وانها إنما تورد وتتكرر للعبرة والموعظة وضرب المثل ؛ وهو مالا نرتاب فيه . فالقصة موجودة في التوراة ولو لم تكن متطابقة مع ماجاء في القرآن ، وأخبار التوراة وقصصها لم تكن مجهولة في الأوساط العربية ، وخاصة في بيئة النبي (ص) على ماذكرناه في اكثر من مناسبة .

— ١١ —

بقي علينا ان نستعرض الآيات المتعلقة بالموضوع الرابع . واليك هي :

١ — ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... البقرة ١٧٧

٢ — آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... البقرة ٢٨٥

٣ — وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ... آل عمران ٤٢

٤ — فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ... آل عمران ٣٩

٥ — إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ... آل عمران ٤٥

٦ — ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ... النساء ١٣٦

٧ — ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ... الرعد ١٣

٨ — مانتزل الملائكة إلا بالحق ... الحجر ٨

٩ — فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ... مريم ١٧-١٩

١٠ — ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن

أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون... العنكبوت ٣١-٣٤

١١ — وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم ... الزمر ٧١

١٢ — وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ... الزمر ٧٣

١٣ — وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه مايشاء... الشورى ٥١

١٤ — أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ... الزخرف ٨٠

١٥ — مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .. قاف ١٨

١٦ — وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ... « ٢١

١٧ — علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين او أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى ... النجم ٥-١٤

١٨ — وما جعلنا اصحاب النار إلا ملائكة ... المدثر ٣١

١٩ — كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ماتفعلون ... الانفطار ٩-١٢

٢٠ — إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ... التكوير ١٩-٢٣

٢١ — تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ... القدر ٤

ويسلك في سلك آيات هذا الموضوع كثير من الآيات التي نقلناها لاشتراكها

معها فيه وخاصة آيات البقرة ٩٧-٩٨ وآل عمران ١٨ و ١٢٤ - ١٢٥ والنساء ١٦٦ و ١٧٢ والأنعام ١٥٨ والأنفال ١٢ و ٥٠ والنحل ٢٨ و ٣٢ - ٣٣ و ٤٩ - ٥٠ ومريم ٦٤ والأحزاب ٥٦ و ٤٣ والزمر ٧٥ وغافر ٦ وفصلت ٣٠-٣١ والتحريم ٦ والحاقة ١٧ والأنبياء ٢٦-٢٩

ومع ان آيات هذا الموضوع ومشاركاتها مع آيات المواضيع السابقة هي بسبيل تقرير عقيدة الايمان بالملائكة وتكفير منكريهم ؛ والاخبار بما يقومون به من خدمات لله سبحانه سواء في تبليغ الأنبياء رسالات الله وبشائره او تنفيذ أوامره في ملكوت السماوات والأرض ، او في حراسة الجنة والنار ، وإنزال الناس منازلهم فيها ، او في مراقبة أعمال الناس وتسجيلها الخ . فانها يمكن من جهة اخرى ان تكون مثل آيات الموضوع السابق بسبيل تثبيت مافي أذهان العرب قبل البعثة عن الملائكة من معلومات وصور مع تصحيح مافيها من خطأ او وهم . فالعرب كانوا كما أشرنا في الابحاث السابقة يؤمنون بوجود الملائكة وصلتهم بالله ومنزلتهم عنده وقيامهم بتدبير أمر الكون بأمره ؛ مع الانحراف الى الاعتقاد بأنهم بنات الله واشراكهم معه بالعبادة واعتقادهم بنفعهم وضرهم .

الفصل الرابع

في الجن وعقائد العرب فيهم

خطورة موضوع الجن — تصنيف ابحاث الفصل حسب الآيات — كلمة الجن ومداها في اذهان العرب — ترادف كلمتي الجن والجنة ودلالته — الآيات المتعلقة بعقائد العرب في الجن — دلالتها وما تحتويه من صور — اشراك العرب الجن كان بدافع الخوف ونفادي الأذى — ظروف انبثاق فكرة العنصر الخفي الشرير في اذهان العرب — توهم العرب وجود جن في أجواف اصنامهم — الآيات التي يستأنس بها على ماعند العرب من افكار ومعارف عن الجن — مافي الآيات من دلالات وصور — ماهية الجن عند العرب — استدراك على نعت العرب النبي (ص) بالجنون. الآيات الايمانية في الجن — مافيها من دلالات وصور — إبليس والشيطان وصلتها بموضوع الفصل — اشتقاق كلمة إبليس ومعناها — ماهية إبليس — ذرية إبليس. ابليس وذريته فريق من الجن — مدى تسمية ابليس ومهمته — احتمال اقتباس العرب معرفتهم بابليس من الكتابيين — قصة آدم وابليس في القرآن — دلالة القصة وحكمة تكررها — كلمة الشيطان — دلالاتها من الآيات — مرادفتها لابليس على الغالب — الشيطان في اذهان العرب — هل كان العرب يعبدون ابليس والشيطان فعلاً.

— ١ —

وموضوع الجن هو الآخر له خطورته في عقائد العرب وافكارهم في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة. وقد ورد ذكرهم كثيراً في القرآن في مناسبات متنوعة. وتقيد مع ذلك ان الآيات الواردة عنهم أقل من الآيات الواردة عن الملائكة عدداً، وليس فيها ذلك الوضوح الذي يمكن الاستناد اليه في شرح عقائد العرب وأفكارهم فيهم بقوة وتوكيد كما استطعنا ذلك في موضوع الملائكة. ولكنا سنحاول رسم صورة قرآنية عنهم نرجو ان يكون فيها بعض الغناء والوضوح. وكما فعلنا

في آيات الملائكة سنفصل في آيات الجن حيث نستعرضها مصنفة في مجموعات تتناول المواضيع التالية :

الاولى : ما يتعلق بعقائد العرب وأديانهم .

الثاني : ما يمكن الاستئناس به على ما عند العرب من افكار ومعارف عن الجن .

الثالث : ما فيه تقريرات ايمانية عن الجن وماهيتهم .

والموضوع الثالث وان كان ايمانياً وغيبياً فانه غير منقطع بالموضوع الثاني فيما نعتقد.

— ٣ —

وقبل البدء باستعراض الآيات نرى ان نذكر شيئاً عن كلمة « الجن » وما يمكن ان يكون في ذهن العرب عنها .

فاولا ان كلمة الجن وبعض متشابهاتها اوتفرعاتها اللفظية مثل جن وجنّة وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول ان الشيء الخفي او المستور بالنسبة الى الجن مما كان مستقراً ومفهوماً في اذهان العرب . ولعل مما يصح قوله إن اطلاق التسمية انما هو مقتبس من المعنى ، وبعد ان وجد في ذهن العرب معنى او عقيدة وجود هذا النوع الخفي من مخلوقات الله .

ولقد ذكر بعض المفسرين قولا بشمول تسمية الجن للملائكة لاتحادهم في معنى الاختفاء في سياق تفسير آيات الأنعام (١٠٠) والكهف (٥١) ؛ ولا نرى هذا مستقيما ؛ لا سيما وقد سمي القرآن كل نوع من النوعين بأسم خاص مما يسوغ القول بأن التسميتين كانتا قبل نزوله علمين عليها في اللسان العربي . ولقد جاءت تسمية الملائكة في التعبير عن نوع وتسمية الجن في التعبير عن النوع الآخر في مقطع قرآني واحد مما يصح ان يعتبر دليلا قاطعاً :

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ... سبأ ٤٠ ـ ٤١

على ان هذا لا يفقد ذلك القول وجاهته بالمرة وخاصة بالنسبة لمدة طويلة نوعاً قبل البعثة ، ولتطور نشوء التسميتين ومدلولها . فمع قطعية علمية التسميتين في

اذهان العرب عندنزول القرآن فليس يبعد عن الاحتمال انيكون العرب قداطلقوا اسم الجن قبل ذلك بمدة طويلة ما على العنصرين الخفيين الرحيم والشرير والمأمول والمخوف ، ثم اطلقوا على الاول اسم الملائكة وبقي الثاني علماً على النوع الثاني .

— ٣ —

وثانياً ان لفظ الجنة قد استعمل في القرآن مرادفاً للفظ الجن كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين هود ١١٩

٢ — الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس . الناس ٥ — ٦

وان لفظ الجنة استعمل في الدلالة على المعنى الذي يدل عليه لفظ الجنون كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو الا نذير مبين ...

الأعراف ٢٢ — ٢٣

٢ — أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ... المؤمنون ٧٠

٣ — وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ... الانفطار ١٨٤

وان في هذا الاشتراك بين الجنة والجن وبين الجنة والجنون ما يمكن ان يدل على ان العرب كانوا يعتقدون ان بين الجن والجنون صله ، وان الجنون هو أثر من آثار الجن في الانسان. وفي القرآن آية فيها صراحة ما في ذلك وهي :

«الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس..

البقرة ٢٧٥

ولفظ الشيطان استعمل في القرآن مرادفاً للجن واحياناً لوصف العتاة البغاة منهم كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ...

الانبياء ٨٢

٢ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ... سبأ ١٢

٣ — وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون ألى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب ... الصافات ٧–٨

هذا مع القيد ان هذه العقيدة ليست عقيدة عربية خاصة ، بل اشترك فيها وما زال جل الامم إن لم نقل كلها .

— ٤ —

واليك الآن آيات الموضوع الاول :

١ — وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه. الأنعام ١٠٠

٢ — ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي أجلت لنا.. الأنعام ١٢٨

٣ — آيات سبأ ٤١ – ٤٢ التي نقلناها قبل قليل .

٤ — وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون ...

٥ — وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين اضلانا من الجن والانس نجعلها تحت أقدامنا ... فصلت ٢٩

٦ — وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً .. الجن ٦

ومن الممكن ان يستدل من هذه الآيات على ما يلي

اولا ان العرب او فريقاً منهم اتخذوا من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم (١) . وآيات الأنعام وسبأ تساعد على الترجيح بان الفريق الذي عنته قد اتخذ الجن شركاء اصليين كما فعل فريق آخر بالنسبة الى الملائكة كما سبق القول . وآيات سبأ خاصة تلهم ان عقيدة الايمان بالجن كانت واسعة النطاق .

وثانياً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان بين الله سبحانه وبين الجن نسباً . وقد أشرنا الى هذا في الفصل السابق فلا نرى ضرورة للاعادة .

---

(١) ذكر الكلبي في كتاب الاصنام ان بني ملح من خزاعة كانوا يعبدون الجن (ص ٣٤)

وثالثاً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يتوهمون التحالف مع الجن ويتولونهم ويستعيذون بهم . وقد روى المفسرون (١) في صدر تفسير آيتي الأنعام والجن (١٢٨ و ٥) اللتين يستأنس بهما على هذا ان الرجل من العرب كان إذا سافر وخاف الجن في الطريق أو في أحد الوديان وخاصة في اسفار الليل التي هي جل اسفار العرب قال أعوذ بسيد هذا الوادي ، وكانوا يرون ذلك استجارة تقابل من الجن بالاستجابة . على ان آية الأنعام تحمل مفهوما واسعا في صدد ما كان يتوهم العرب من كثرة الصلات والمناسبات بين الجن والانس مما يمكن ان يلهم ان استجارة العرب بالجن وعياذهم بهم ليس محصوراً في الاسفار وحين عبور الوديان الموحشة ، بل كانوا يعوذون او بالاحرى يتعوذون منهم في كل مناسبة (٢) سواء كانوا مقيمين أو ظاعنين وخاصة في ظلمات الليل .

وفي سورة الفلق تعليم بالاستعاذة من ظلمة الليل كما ترى :

« قل اعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق اذا وقب (٣) . . .

١ — ٣

مما يمكن ان يلهم أنها بسبيل تلقين المسلمين — وكانوا عرباً حين نزولها — الاستعاذة بالله من شر ظلمة الليل بدلاً مما اعتادوه من الاستعاذة بالجن .

فليس من التجوز ان يقال إن العرب كانوا يخشون ظلمات الليل ، وكان من بواعث خشيتهم هذه عقيدة الجن ووهم مسهم واذاهم .

— ٥ —

وعلى هذا فما يصح ان يقال إن اشراك العرب للجن في العبادة والدعاء واستجارتهم وعياذهم بهم انما كان لداعي الرهبة والفزع منهم اكثر منه لداعي الرغبة والرضاء وبغية الخير والبر . ومن الجدير بالتنبيه عليه وفيه تأييد لهذا انه ليس

(١) الطبري مثلا في صدد تفسير الآيتين .

(٢) في أسد الغابة ج ٤ ص ٢٣٤ قصة استجارة صاحب غنم بعامر الوادي من الجن على ذئب خطف له حملاً .

(٣) غاسق : ظلمة الليل . وقب : خيّم او انتشر .

في آيات الجن معنى الاستشفاع الذي كان يرجوه العرب من الملائكة ، والذي كان يبعثهم عليه الامل في خير الله وبره عن طريق الملائكة وحظوتهم ؛ وانما فيها الاستجارة والاستعاذة اللتين يبعث عليهما الخوف والفزع ؛ وبعبارة اخرى ان العرب بينما كانوا يرون في الملائكة عناصر بر وخير ونفع وعون كانوا يرون في الجن عناصر شر واذى وضرر ؛ فكانوا يرجون من عبادة أولئك والاستشفاع بهم البر والخير والنفع بينما كانوا يتقون بعبادة هؤلاء والاستعاذة بهم الشر والضرر والأذى.

ومهما يكن من امر فاننا نقول هنا كما قلنا في صدد الملائكة إن فكرة وجود عنصر شر خفي يجب تفادي أذاه بالعبادة والتزلف هي طور تفكير بشري مشترك يصح ان تكون انبثقت في نفس العرب كما انبثقت في غيرهم لان الباعث فيها عام مشترك ثم تطورت بعض التطور . ولعل من الجائز ان يزاد على هذا ان فكرة إصهار الله سبحانه للجن ونسل الملائكة من هذه المصاهرة قد تدل على ان فكرة العنصر الشرير الخفي والخوف منه والتزلف اليه بالعبادة والاستعاذة عند العرب كانت اسبق في الانبثاق من فكرة العنصر الرحيم الخفي . وقد يكون هذا هو المتسق مع الغريزة او الطبيعة البشرية .

هذا وليس في الآيات ما يمكن الاستدلال به على ان العرب قد اتخذوا من اصنامهم او معبوداتهم رموزاً ومسميات للجن كما امكن الاستدلال على انهم فعلوا ذلك بالنسبة للملائكة . غير ان هناك بعض الروايات (١) ذكرت اخباراً تتصل بهذا المعنى بعض الشيء من سماع سدنة بعض المعبودات هتافات الجن من اجوافها ، ومن رؤية جنية تخرج من العزّى ناشة شعرها مولولة نادبة . . .

واذا كنا نرى التوقف في مثل هذه الروايات هو الاولى فاننا لا نستبعد من حيث الفكرة ان يكون العرب اعتقدوا انه كان لمعبوداتهم قرناء من الجن ، وانهم

---

(١) في طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ وتفسير الخازن ج ٤ ص ١٩٥ واسد الغابة ج ٤ ص ١٥٣ وكتاب الاصنام للكلبي ص ١٢ و ٢٥ روايات في هذا الصدد .

حينما كانوا يقومون بواجب العبادة لها كانوا يتصورون انفي اجوافها جناً ينظرون اليهم ويسمعون دعاءهم .

— ٦ —

واليك آيات الموضوع الثاني :

١ — واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... البقرة ١٠٢

٢ — قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى أئتنا ... الانعام ٧١

٣ — وقالوا يا أيها الذي نُزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ... الحجر ٦—٧

٤ — قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ... الأسراء ٨٨

٥ — وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ... الشعراء ٢١٠—٢١٢

٦ — هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... الشعراء ٢٢١ - ٢٢٦

٧ — وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ... النمل ١٧

٨ — قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ... النمل ٣٩

٩ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ... سبأ ١٢—١٣

١٠ — فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ...
سبأ ١٤

١١ — فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب . والشياطين كلّ بنّاء وغواص . وآخرين مُقرّنين في الأصفاد ... ص اد ٣٦—٣٨

ويسلك في سلك هذه المجموعة آيات البقرة ٢٧٥ والأعراف ١٨٤ والمؤمنون ٧٠ والناس ٤ — ٧ التي نقلناها قبل قليل .

— ٧ —

وقد لا تكون هذه الآيات تحكي اقوالا ومعارف وافكاراً عربية صريحة ومباشرة كما ان فيها مقاطع من قصص سليمان . غير ان القصص القرآنية كانت مما يعرفه السامعون العرب او بعضهم اجمالاً او تفصيلا كما دللنا على ذلك في فصل سابق. وهذا ينسحب على المقاطع التي نقلناها كما هو المتبادر . وفي اسلوب ومضمون وسياق الآيات الاخرى قرائن تدل على ان ما فيها في صدد الجن وشياطينهم ليس غريباً عن افكار وتقاليد ومعارف العرب السامعين حينما يمعن النظر فيها . لذلك فلسنا متجوزين إذا ما استئنسنا بها في الاستدلال على ما عندهم قبل البعثة عن الجن من افكار ومعارف .

وهذا ما يمكن الاستدلال عليه .

١ — إن العرب كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن تتسمع إلى السماء ، وتلقن القول او تتنزل به على الشعراء والكهان فيصدر عنهم ما يصدر من بليغ الشعر وسجع الكلام الموزى ؛ وهذا مستلهم من آيات الشعراء (٢١٠ و ٢١٢ و ٢٢١ و ٢٢٧) وقد احتوت آيات اخرى تقريرات ايمانية عن استراق الشياطين للسمع وعن رميهم بالشهب سنوردها في عداد آيات الموضوع الثالث ؛ وبين هذه التقريرات وذهاب العرب من الصلة ما هو واضح . ولقد كانوا يعتقدون على ما ذكرته الروايات ان لكل شاعر شيطاناً من الجن ، يلقنه ما يقوله من الشعر ، وكانوا يسمونه رئيّاً ، بل وبعض

هذه الروايات سمت اسماء شياطين بعض فحول الشعراء ؛ وإذا كان من الاولى التوقف في امر الروايات من حيث التفصيل فان الفكرة فيها صحيحة ومتسقة مع ما تلهمه آيات سورة الشعراء المذكورة . كذلك فانهم كانوا يعتقدون ان بين الجن والكهان صلة وان الجن يسترقون السمع من السماء وينقلونه إلى الكهان فيضمنون سجعهم التوريات الغيبية التي ترد فيه ؛ والفكرة صحيحة ومتسقة مع ما تلهم الآيات المذكورة ايضاً .

٢ — انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر ويتصلون بالسحرة ويساعدونهم في أعمالهم . وهذا مستلهم من آية البقرة (١٠٢) ، ونقيد أن هذه الآية هي في صدد النعي على اليهود اتباعهم الشياطين الذين يعلمون الناس السحر . غير اننا نرجح أن هذا كان بالنسبة لليهود تقريراً لواقع أمرهم من جهة وأن فكرة صلة السحرة واعمالهم بشياطين الجن مما لم يكن غريباً عن العرب المحتكين باليهود احتكاكاً وثيقاً من جهة اخرى .

٣ — انهم لم يكونوا خالي الذهن من ما كان يروى عن تسخير الجن لسليمان (ص) وما كانوا يقومون به له من أعمال عظيمة ، وما كان لهم من قدرة خارقة . ومن المعقول أن يكون ذلك من جملة ما كانوا يتناقلونه اولاً ، وأن يكون قد استقر في اذهانهم على أنه حقيقة ثانياً . ولقد رويت أشعار جاهلية تضمنت أن جن سليمان (ص) هم الذين بنوا بنايات تدمر العظيمة ، وبقطع النظر عن صحة الشعر ونسبته فالمرجح أنه ترديد لما كان في اذهان العرب عن هذه البنايات وامثالها ، وعن قدرة الجن الخارقة .

٤ — انهم كانوا يذهبون إلى ان الجن هم الذين يوسوسون في صدور الناس ؛ وهذا مستلهم من تعليم النبي (ص) والمسلمين الاستعاذة بالله من هذه الوسوسة في سورة الناس .

٥ — انهم كانوا يذهبون إلى ان التخبط بالصرعة هو من مس الشياطين ؛ لان التمثيل الوارد في آية البقرة لابد من ان يكون ناشئاً عن مفهوم واقعي ؛ كما كانوا يذهبون إلى ان الجن يخالطون الناس في عقولهم وان الجنون هو اثر من هذه

المخالطة (آيات البقرة ٢٧٥ والاعراف ١٨١ والحجر ٦ — ٧ والمؤمنون ٧٠).

٦ — انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن قد يستهوون الانسان إذا ماخلوا به في ارض فيذهبون بلبه ، ويذهلونه عن نفسه، فيضرب في الأرض على غير هدى حائراً ذاهب اللب لا يسمع نداءً ولا يهتدي إلى طريق نجاة .

٧ — انه كان للجن في اذهان العرب حيز كبير من حيث قوتهم في العظائم وقدرتهم على الخوارق ؛ وهذا مستلهم من الآيات جميعها ، وما ذكرناه في الفقرات السابقة، ثم من آيات الاسراء ٨٨ والصافات ٦ — ١١ بنوع خاص ؛ فقد ذكر الجن في معرض التحدي وتقرير عجز الانس عن الاتيان بمثل القرآن ولو ظاهرهم الجن في آية الاسراء . وهذا إنما كان بسبب ذلك الحيز الكبير الذي اشرنا اليه كما هو المتبادر . وقد ذكر الكون في آيات الصافات ثم ذكر الشياطين وقوتهم وتمردهم واشير إلى انهم لم يفلتوا من قدرة الله عذابه ، ثم امر النبي باستفتاء العرب باسلوب تهكمي عما إذا كانوا يرون انفسهم اشد خلقاً حتى يظنوا انهم قادرون على التفلت من عذاب الله، وهذا يعني ان للجن في اذهان العرب قوة وشدة وقدرة فاستحكمت الحجة القرآنية فيهم كما هو واضح ايضاً .

— ٨ —

وليس في القرآن ما يدل بصراحة على ان العرب كانوا يعرفون ماهية الجان ونشأتهم ؛ غير ان ما جاء في هذه الفقرات يمكن ان يدل على انهم كانوا يعتقدون انهم مخلوقات لطيفة او هوائية مع قدرة خارقة على الاعمال وقوة على التشكل ؛ وبهذا يفسر ذهابهم إلى قدرتهم على مخالطة الناس في عقولهم ورؤيتهم الناس دون ان يروهم ، ووسوستهم في صدور الناس وصعودهم الى السماوات ، وإتصالهم بالشعراء والكهان والسحرة اتصال تعليم وتلقين من حيث لا يرون ولا يشعر بمادتهم . على ان هناك آيات سنوردها في عداد آيات الموضوع الثالث تذكر ان الجن خلقوا من مارج من نار اى من لهيب من نار ، وفي هذه النشأة اتساق ما مع تلك الحالات مما يجعلنا لا نستبعد ان يكون العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل نزول القرآن ؛

ولعل عقيدتهم بادعاء الله سبحانه اليهم او جعلهم نسباً بينه سبحانه وبين الجن من القرائن القرآنية التي تدعم هذا الاتساق .

— ٩ —

ونريد ان ننبه على امر مهم بصدد الفقرة الخامسة ؛ فنحن إنما استدللنا بآيات الاعراف والحجر والمؤمنون على ان العرب كانوا يذهبون الى ان الجنون اثر من مخالطة الجن لعقول الناس من جهة اشتراك اللفظ بين الجن والجنة والجنون والجنّة فحسب ، اذ نحن نعتقد انهم لم يكونوا يقصدون نعت النبي (ص) بالجنون او بأن به جنة انه مريض فاقد الوعي مخبول العقل : فانه لا يعقل ان يظنوا هذا فيه وهم يسمعونه يتلو عليهم الروائع والحكم البالغة التي كانت تذهلهم وتبهرهم ، ويتكلم عن الله بذلك الاسلوب القوى الأخاذ ، والبرهان الناصع الدامغ ، وقد كان قبل نبوته معروفاً عندهم بالعقل الراجح والخلق الكريم وعدم الفضول كما تلهم هذه الآيات :

١ — قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . . . يونس ١٦

٢ — أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . . . ٦٨ — ٧٠ المؤمنون

وانما كان هذا منهم من قبيل ماجرت به العادة في اطلاق كلمة المجنون على من يقدم على دعوة حديثة ومثيرة او يبدى آراء غريبة او يقف موقفاً خطراً .

على ان من الممكن ان يكونوا قصدوا ايضاً ان يقولوا ان الجن هم المتصلون بالنبي (ص) لا الملائكة ، وانهم هم الذين يلقنونه مايقول ، وان مايبدو منه هو اثر من تخليط الجن او مخالطتهم له . وسياق آيات الشعراء يلهم شيئاً من هذا ويلهم ماستدللنا عليه من عقيدة العرب باتصال شياطين الجن بالشعراء والكهان وتلقينهم لهم ايضاً ، حيث يلهم انهم قالوا عن النبي (ص) ذلك فرد عليهم القرآن في تلك الآيات بثلاثة ردود ؛ اكد في اولها ان القرآن انما نزل به الروح الامين على قلب النبي (ص) من رب العالمين :

« وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ... ١٩٢ — ١٩٥ الشعراء

ونفى في ثانيها تنزل الشياطين بالقرآن وتلقينهم اياه للنبي (ص) وذلك في الآيات ٢١٠-٢١٢ وقرر في ثالثها ان الشياطين الذين كان العرب يذهبون الى اتصالهم بالناس وتلقينهم لهم انما يتصلون وينزلون على الكاذبين المفترين والشعراء الذين في كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون ويتبعهم الغاوون ، في حين ان النبي لم يكن كاذباً ولا مفترياً ، ولم يتبعه إلا العقلاء الراشدون ، ولم تكن دعوته ضلالاً وإفكاً وإنما هي دعوة الى الله ومكارم الاخلاق . (آيات الشعراء ٢٢١- ٢٢٧) .

وفي آيات في سورة التكوير توكيد لكون الذي اتصل بالنبي ملك وليس شيطاناً كما ترى :

« والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالافق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو الا ذكر للعالمين ... ١٧-٢٧

وفي هذا التوكيد توكيد لما كان يذهب اليه العرب من اتصال الشياطين بالنابغين اتصال تعليم وتلقين، ومن تفسير امر النبي (ص) حسب ذهابهم هذا كما هو المتبادر .

— ١٠ —

واليك الآن آيات الموضوع الثالث :

١ — « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ... الانعام ١١٢

٢ — يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ... الانعام ١٣٠

٣ — قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها ... الاعراف ٣٨

٤ — ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم

أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل ...
الاعراف ١٧٩

٥ — وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ... هود ١١٩

٦ — ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦-١٨

٧ — ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ... الحجر ٢٦-٢٧

٨ — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسّمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب . فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ... الصافات ٦ — ١١

٩ — وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين ايديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين ... فصلت ٢٥

١٠ — وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين ...
الاحقاف ٢٩ — ٣٢

١١ — خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار ... الرحمن ١٤-١٥

١٢ — يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ... الرحمن ٣٤

١٣ — فيهن خيرات حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام فبأي آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ... الرحمن ٧١-٧٤

١٤ ـ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ... الملك ٥

١٥ ـ قل اوحي اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً . وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لاندري أشر اريد بمن في الارض أم اراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ... الجن ١ـ١٥

ويسلك في سلك هذه المجموعة اكثر آيات الموضوع الثاني لانها آيات اخبارية عن الله في صدد الجن وشياطينهم مما يدخلها في عداد الآيات الايمانية كما هو المتبادر .

— ١١ —

فهذه المجموعة وما يسلك معها وان كانت في الحقيقة احتوت تقريرات ايمانية وغيبية من الجن فلا تخلو هي الاخرى من قرائن تلهم ان مافيها متسق مع مافي اذهان العرب وافكارهم وعقائدهم عن الجن قبل البعثة ؛ سواء في اسلوبها ومضمونها ، وسواء في كونها انما تهدف للعظة والذكرى وتدعيم الرسالة النبوية ، وفي كون هذا الهدف يكون اكثر مكاناً وتحققاً اذا كان مما احتوته الآيات التي تهدف اليه غير غريب عن اذهان وافكار من تعظهم وتذكرهم ، وأول هؤلاء المخاطبين مباشرة بالآيات هم العرب من اهل بيئة النبي (ص) . واليك بعض البيان :

١ — ان آيات الحجر ١٦ـ١٨ والصافات ٦ـ١١ والملك ٥ تخبر ان الشياطين الذين يحاولون استراق السمع يرمون بالرجوم والشهب ، وآيات سورة الجن تحكي

في ماتحكيه قول الجن انهم كانوا يقعدون مقاعد للسمع في السماء ثم فوجئوا بوجود الحرس الشديد والشهب ، وآيات الشعراء ٢١٠ — ٢١٢ تذكر ان الشياطين معزولون عن السمع ، فاذا جمعنا هذه الحلقات الى بعضها ، ولاحظنا ان ماحكى عن لسان الجن من مفاجئة الحرس والشهب الشديدين هو حادث كوني وليس شيئاً مغيباً امكننا القول ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون ان شياطين الجن يصعدون الى السماء ويسترقون السمع ويلقونه الى بعض طبقات من الناس ، وانه حدث قبيل البعثة النبوية ان شاهدوا كثرة الرجوم السماوية ادهشتهم وجعلتهم يتوقعون حدثاً خطيراً ، ولعل هذا ادهش كهانهم في الدرجة الاولى واجرى على السنتهم توريات في توقع مثل ذلك الحادث الخطير .

وفي آيات الصافات قرينة قوية تؤيد ذلك ، حيث تأمر النبي (ص) بعد ذكر الشياطين ورجمهم بالشهب الثاقبة ان يسأل الكفار عما إذا كانوا هم أشد خلقاً من ما خلق الله من الخلق القوي العظيم الذي يحيط به عذاب الله ؛ وطبيعي أن لايوجه هذا السؤال إلا لمن يعرف ذلك ، لأن بهذه المعرفة تستحكم الحجة ويقوم الإفحام كما هو المتبادر .

٢ — ان آيات الأعراف ١٢٩ و ١٧٩ وهود ٩١١ وفصلت ٢٥ والجن ١ — ١٠ تقرر فيما تقرره ما يفيد ان الجن طوائف متنوعة ومتفاوته كالأنس ؛ وليس فيها ما يفيد ان هذا التقرير تشريع اسلامي ، ولما كان العرب يعتقدون بوجود الجن فليس من التجوز ولا في الآيات ما يمنع ان يقال انهم كانوا كذلك يعتقدون بانهم طوائف متنوعة ومتفاوتة . واسلوب الآيات يلهم انها بسبيل ذكر شيء مقرر في اذهان السامعين إذا ما امعن فيها .

وهذا القول ينسحب بتمامه بالنسبة لما تقرره هذه الآيات من معنى كون الجن مخلوقات عاقلة ، واهل للتكليف والخطاب ، والثواب والعقاب كالأنس وان فيهم الصالح والطالح والمؤمن والكافر مثل الأنس بل وان منهم من كان يؤمن بالتوراة كما تلهم آيات الاحقاف ومنهم من كان نصرانياً كما تلهمه آيات سورة الجن .

وتلفت النظر إلى ان القرآن لا يسلك الملائكة في سلك الانس والجن من حيث

التنوع والتفاوت والصلاح والطلاح والايمان والكفر، والتكليف والثواب والعقاب وليس فيه ما يدل على أن شيئاً من هذا كان موجوداً في أذهان العرب .

٣ — ان آية الانعام (١١٢) تقرر وجود اتصال وحي وتلقين بين شياطين الانس وشياطين الجن ، وتصف هذا الوحي بالزخرف والغرور ؛ وهذا متسق مع ماستلهمناه سابقاً من آيات الشعراء وغيرها انه من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٤ — ان آيات الاحقاف ٢٩ — ٣٢ وآيات سورة الجن تحتوى قرينة قوية إن لم نقل دليلاً حاسماً على أن النبي (ص) لم ير الجن الذين استمعوا القرآن في المرتين لأنها تخبره بالامر إخباراً ، وآيات الجن اقوى دلالة حيث تأمره بان يقول انه أوحى اليه أن نفراً من الجن قد استمع القرآن وحيث يلهم هذا ان القرآن يقرر أن الجن أجسام لطيفة يرون ولا يرون (١) . وهذا متسق مع ما استلهمناه سابقاً من أن ذلك من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٥ — ليس في الآيات التي تذكر خلق الجن من النار او لهيبها وخلقهم قبل الانس ما يدل على أن هذه التقريرات جديدة على أسماء العرب ، وبكلمة اخرى ليس فيها ما يمنع القول أنها مما كان مستقراً في أذهانهم ايضاً . ولقد رأينا في المجموعة الاولى زعمهم أن بين الله سبحانه وبين الجن نسباً ، وهذا الزعم يبعد أن يكون لو لم يكن معه عقيدة بشيء من التناسب بشكل ما ؛ وخلق الجن من لهيب النار ، وكونهم أجساماً لطيفة يصحان أن يكونا هذا التناسب في أذهان العرب الذي كانوا يبررون به لانفسهم ذلك الزعم كما هو المتبادر .

— ١٢ —

وفي القرآن آيات عديدة ذكر فيها ابليس وجنوده وذريته والشياطين والشرك بهم وتوليهم ووسوستهم باساليب ومناسبات متنوعة . وقد قررت أحدى الآيات بصراحة ان أبليس من الجن كما أن الشيطان جاء مرادفاً لأبليس في آيات

(١) في سورة الاعراف آية بصدد ابليس وذريته تذكر بصراحة انه يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وابليس هو من الجن كما يقرر ذلك القرآن وسيأتي بعد قليل بحث واف عنه .

وجاء ذكره على اعتبار انه من الجن في آيات اخرى . وهكذا اتصلت المناسبة بين هذين العلمين والجن وصار من المفيد الحاق بحث فيها بهذا الفصل .

— ١٣ —

ونقول في صدد ابليس :

اولاً ان المفسرين قرروا ان الكلمة مشتقة من أبلس بمعنى يأس من الرحمة ، وفي القرآن بضع آيات وردفيها هذا الفعل بهذا المعنى كما ترى في الامثلة التالية :

١ ـ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ... الانعام ٤٤

٢ ـ فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوامن قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ... الروم ٤٩

ونحن نأخذ بما قرره المفسرون لأنه وجيه كل الوجاهة . ونقول زيادة على هذا ان الكلمة علم ذم ، وانها كانت مفهومة بهذا المعنى قبل نزول القرآن ،استناداً إلى التقرير القرآني بان القرآن قد نزل بلسان العرب .

ولقد قال بعضهم بأحتمال كون الكلمة دخيلة . ولا نرى الاخذ بهذا القول ، بعد ان احتوى القرآن فعل « ابلس » واشتقاقاته في معنى اليأس من الرحمة . ولعل فيما وصف القرآن به ابليس قرينة او دلالة اخرى حيث وصف بانه رجيم وان عليه اللعنة إلى يوم الدين وانه اخرج مذموماً مدحوراً الخ مما جاء في قصته القرآنية على ما سوف نذكره قليل . على اننا لو سلمنا جدلاً ان جذر « أبلس » دخيل فانه قد صار عربياً بالتعريب والاستعمال قبل البعثة ، ولا ينقض هذا حقيقة كون العرب قد اشتقوا منه لفظ ابليس واستعملوه ،والصيغة صيغة عربية ، وليس من الضروري فوق هذا كله ان يكون دخيلاً إذا كان الجذر سامياً لان العربية هي الأخرى سامية .

— ١٤ —

ثانياً أن القرآن يذكر بصراحة أن ابليس من الجن كما ترى فى الآية التالية : «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ألا ابليس كان من الجن ففسق عن

أمر ربه أفتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ...
الكهف ٥٠

ولقد عزا بعض المفسرين قولاً إلى ابن عباس (رض) بان الجن في هذه الآية قبيل من الملائكة لازالة ما يتوهم من التناقض بين اختصاص الله الملائكة بالخطاب واستثناء ابليس الذي لم يكن موضوع خطاب لو كان من الجن . كما جاء في الآية نفسها وفي آيات قصة آدم وابليس الاخرى . على ان بعض المفسرين لم يروا هذا مستقيما وخرجوا عبارة الآيات تخريجاً سليما ، وهو الاوجه ولا سيما أن تسمية القرآن « الجن » لنوع من الخلق وتسميته «الملائكة » لنوع آخر قطعية وقد جاءت التسميتات في آية واحدة هي آية سبأ ٤٠ ـ ٤١ كما سبق ذكره في مناسبة سابقة ؛ ولقد ذكر القرآن أن الجان خلقوا من نار (آيات الحجر ٢٧ والرحمن ١٥) وذكر ان ابليس قد خلق من النار كما جاء في آيات قصته التي سنورد بعضها بعد (١) وفي هذا دلالة قطعية اخرى .

وهذا وذاك وان كانا تقريرين قرآنيين فان الاسلوب يلهم انهما غير غريبين على اسماع السامعين الذين كانوا عرب بيئة النبي (ص) حين نزول القرآن . ولذلك يصح أن يقال انهم كانوا قبل الاسلام يقولون بأن ابليس من الجن وانه مخلوق من النار . ولعل تسمية الموسوسين في صدور الناس « جنة » في سورة الناس وهذه هي مهمة ابليس وذريته قرينة حاسمة في هذا الصدر .

ـ ١٥ ـ

ثالثاً ان في آية الكهف (٥٠) اشارة إلى ذرية ابليس ، وفي آية من سورة الشعراء ذكر لجنود ابليس : « فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود ابليس اجمعون. الشعراء ٩٤ ـ ٩٥ » وفي آية من سورة الاعراف ذكر لقبيل الشيطان ورد بعد قصة ابليس وآدم مما فيه دلالة قطعية على ان ابليس هو المعنيّ :

«يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما

---

(١) في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف وصاد .

سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ... الأعراف ٢٧

واسلوب الآية وسياقها هو الأخر اسلوب تقريري يلهم ان مضمونها ليس غريباً على اسماع السامعين .ولذلك يصح أن يقال ان أهل بيئة النبي (ص)وعصره كانوا يقولون بان لابليس ذرية أو قبيلاً أو جنوداً ، او هذا حيناًوهذا حيناً وهذا حيناً آخر .

-١٦-

رابعاً ان الآيات القرآنية صريحة بان الجن الذين يوسوسون في صدور الناس ليسواهم جميع الجن ، حيث يقرر بعضها ان من الجن من هو صالح مهتد كما ان كلمات قبيل وجنود وذرية هي مضافة إلى ابليس فحسب ؛ وما دمنا رجحنا ان التقريرات القرآنية ليست غريبة على الاسماع فنقول هنا ايضاً ان العرب كانوا يقولون ان ابليس وذريته او قبيله او جنوده ليسوا كل الجن وانما هم فريق منهم .

خامساً ان تسمية ابليس تتضمن كما قلنا معنى الذم ، وتدل على ان هذا المعنى مما كان يعنيه العرب بالنسبة إلى ابليس ؛ والآيات التي اوردناها تتضمن صراحة كون ابليس علماً على شخصية الوسوسة والأغراء . وهذا المعنى ورد في آية اخرى من سورة سبأ لم ننقلها وهي : « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقاً من المؤمنين ... ٢٠ »واسلوب الآية هو الاخرتقريرى يلهم ان ما تضمنته ليس غريباً، وهذا المعنى قد تكرر بصراحة في قصة ابليس وآدم المتكررة ايضاً . ولهذا فانه يصح ان يقرر ان كون ابليس وقبيله هم الذين يضطلعون باغراء الناس والوسوسة في صدورهم في صدد تزيين الآثام والشهوات مما كان يقول به العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة ايضاً .

هذا ؛ ولما كانت شخصية ابليس او الشيطان وكونها علماً على الأغراء والوسوسة مما ورد في الكتب السماوية السابقة للقرآن على اختلاف في التسمية والاسلوب ، وكان مما تداوله الكتابيون فليس من المستبعد ان يكون هذا مما اقتبسه العرب من هؤلاء ، وان كنا نرجح انه تطور في اذهانهم فاختلف بعض

الاختلاف ؛ واذا صح هذا الاقتباس عن الكتابيين فانه انما كان للشخصية ومداها، فكان من العرب ان وضعوا لها التسمية (ابليس) علم ذم مستمداً من حادث طرده ورجمه الذي لا بد من انهم قد عرفوه كذلك من الكتابيين .

— ١٧ —

سادساً ان القرآن قد اورد قصة آدم وابليس سبع مرات ؛ ستاً منها في سور مكية وهي الأعراف والحجر والأسراء (٦١ — ٦٥) والكهف (٥٠) وطاها (١١٦ — ١٢٣) وصاد (٧١ — ٨٥) وواحدة في سورة البقرة المدنية . والقصة كما يفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتمثيل والتنبيه كما انها تنوعت في اسلوبها ومحتوياتها بعض الشيء ، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى . وهذه ثلاثة أمثلة مما ورد في المرات السبع :

١ — واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ...

البقرة ٣٦

٢ — ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ امرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين . قال أنظرني الى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين . قال فبما اغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين . وياآدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين

فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون. يابني ادم لايفتننكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ...

الأعراف ١١ - ٢٧

٣ - ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم اجمعون. الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين .قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم اكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فأنك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فانظرني الى يوم يبعثون. قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين . ألا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم اجمعين ...

الحجر ٢٦ - ٤٣

- ١٨ -

وشخصية أبليس الأغوائية واضحة في هذه الآيات كما ان الأسلوب هو اسلوب تقريري يلهم ان القصة ليست مجهولة من السامعين شأن القصص القرآنية. لان ما اريد بها هو التذكير والتنبيه والموعظة ، ولعل هذا مما يساعد على فهم الحكمة التي استهدفت في تكرار القصة . فالعرب يعرفون أن الملائكة خلق الله الصالحون المتصلون به المرجون للخير ، وان ابليس وذريته هم شرار ضالون مضلون ، وان ابليس

قد تمرد على الله منذ الاصل ؛ وبعبارة اخرى ان هذه المعاني لم تكن غريبة عليهم فاقتضت ايراد القصة مكررة للنفوذ الى قلوبهم ، فمن استجاب الى امر الله ودعوته كان من اولياء الملائكة ، ومن تمرد وعصى كان من اولياء ابليس وذريته .

وكما ان شخصية ابليس الأغوائية مما كان متداولا بين الكتابيين وواردا في ما كان بين أيديهم من كتب فأن قصة خروج آدم بالاغواء مما ورد في التوراة ايضاً وان ذكرت الحية مكان ابليس ؛ والمتداول بين الكتابيين ان الحية رمز الشيطان او ابليس . ولعل هـــذا مما كان متداولا عندهم قبل البعثة ، ولا نستبعد والحالة هذه ان تكون القصة مما عرفه العرب عن طريقهم مثل ما عرفوا شخصية ابليس الأغوائية ثم تطورت عندهم بعض الشيء .

— ١٩ —

ونقول في صدد الشيطان :

اولا ان المفسرين قالوا إن الكلمة مشتقة اما من شطن بمعنى بعد واما من شـاط بمعنى بطل ـ من الباطل ـ ، وان معناها الموغل في الباطل او الموغل في في البعد عن الحق ، وانها تطلق على العاتي الباغي والخبيث الداهية .

وكما قال بعض الباحثين ان كلمة ابليس دخيلة قالوا هذا عن كلمة الشيطان . ولم يرد في القرآن جذرا شاط وشطن حتى نسوغ لأنفسنا الاصرار على أصالية الاشتقاق العربي للكلمة كما فعلنا في كلمة ابليس . على أنه سواء أكانت أصلية ام دخيلة فان مما لا محل للريب فيه انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزول القرآن ، وانها بذلك يجب ان تسلك في عداد مفردات اللغة العربية ؛ ومن جهة أخرى فانها اذا كانت دخيلة من احدى اللغات السامية فليس من الضروري ان لا يكون جذرها واحداً في هذه اللغة وفي اللغة العربية كما هو المتبادر .

وثانياً ان الكلمة قد وردت في القرآن في مناسبات ومعان متنوعة :

فقد اطلقت على اليهود او زعماء اليهود الذين كانوا يوسوسون للمنافقين كما جاء في آية البقرة ١٤ التي نقلناها سابقـاً . واطلقت على مناوئي الانبياء (ص) والدعوة الالهية من الجن والانس كما جاء في آية الانعام ١١٢ التي نقلناها سابقاً كذلك .

وأطلقت على الذين يأتون بالعظائم من الجن من غير طبقة ابليس كما يستفهم من آيات البقرة ١٠٢ وصاد ٣٥-٣٧ التي نقلناها سابقاً ايضاً. وذكر تسخير الجن في خدمة سليمان (ص) في آيات اخرى والاشارة الى انهم كانوا يعملون ما ذكرته آيات صاد عن عمل الشياطين له دليلان حاسمان على ان المقصودين بالذكر هم من الجن من غير طبقة ابليس . واطلقت على الجن الذين يسترقون السمع من السماء ويتنزلون بالكلام على بعض البشر كما جاء في آيات الحجر ١٦-١٨ والصافات ٦-١١ والملك ٥ والشعراء ٢١٠-٢١٢ و ٢٢١-٢٢٧ والتكوير ١٧-٢٧ التي نقلناها سابقاً كذلك . وآيات سورة الجن التي نقلناها سابقاً ايضاً قرينة حاسمة على ان المقصود منهم هم جن من غير طبقة ابليس وذريته ايضاً . وقد اطلقت للدلالة على ابليس وجنوده وذريته او بكلمة اخرى مرادفة لهم حيث جاءت مفردة وجمعاً وحيث جاءت في جميع اشارات الوسوسة والاغراء وتزيين الفواحش والمنكرات، واثارة العداوة والبغضاء ومناوأة النبي (ص)، وفي الجملة في كل ما يمثل مهمة ابليس الاغوائية، كما انها بودلت بأبابيس في سياق واحد كما جاء في آيات الاعراف ١١ - ٢٧ التي حكت قصة آدم وابليس وكما ترى في الامثلة الآتية ؛ مع التنبيه على ان ذكر الكلمة في هذه الدلالة هو الغالب في ماوردت فيه من آيات :

١ — ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ... البقرة ١٦٨-١٦٩

٢ - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ... البقرة ٢٦٨

٣ - إنما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ... آل عمران ١٧٥

٤ - انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ... المائدة ٩١

٥ — وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ... الانعام ١٢١

٦ — آيات الاعراف ١١ — ٢٧

٧ــ ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . الاسراء ٢٧

٨ ــ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. النحل ٩٨ــ ١٠٠

٩ ــ ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ... مريم ٤٤

١٠ ــ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير(١) ... فاطر ٦

١١ ــ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ... المجادله ١٩

ــ ٢٠ ــ

واستلهاماً من كثرة ورود الكلمة واسلوب الآيات التقريري والتنديدي الذي يلهم ان السامعين لا يجهلون معناها ومداها ، واستناداً الى الحقيقة في كون ماجاء في القرآن من كلمات هي مما كان العرب يفهمونه ويستعملونه نقول :

١ ــ ان العرب كانوا يعنون بالكلمة معنى ذم وهجاء ، وتنويه بالقوى العتي الباغي.

٢ ــ انها كان لها عندهم مفهوم علمي على الوسوسة والاغراء كما كان لابليس، إلا انها استعملت في نطاق اوسع مما ظلت فيه كلمة ابليس ؛ حيث اطلقت على البغاة العتاة الاقوياء من الانس والجن وعلى القادرين على العظائم من الجن من غير طبقة الموسوسين ؛ كما استعملت مرادفة لكلمة ابليس وشخصيته ايضاً . ولعل مما يصح ان يقال ان اطلاقها على ابليس او اقامتها مقامه هي بسبيل تشديد ذم ابليس وبيان شدة بغيه وعتوه ، وان الكلمة كانت تستعمل قبل نزول القرآن كصفة ذم لكل باغ عات متمرد وانها صارت مرادفة لا بليس او صفة له من هذه الناحية .

ــ ٢١ ــ

بقيت نقطة جديرة بالبحث في صدد ابليس والشيطان ، بل هي رئيسية بالنسبة

---

(١) الشيطان في هذه الآيات موصوف بما حكي ابليس عن نفسه وبما قرره الله عنه في آيات قصته . اقرأ آيات الحجر ٣٩ ــ ٤٢ الاسراء ٦١ ــ ٦٥ مثلاً .

للعقائد والاديان قبل البعثة ، ونعني مدى ما جاء من تعابير الولاء والعبادة والدعاء لأبليس والشيطان والاشراك بهما مما تكرر وروده في آيات كثيرة مما نقلناه ومالم ننقله .

فهل كان العرب قبل البعثة يعتقدون فعلا بصفة إلهية ما في ابليس والشيطان او يتخذونهما معبودات واولياء على نمط ما فعلوا بالنسبة إلى الملائكة والجن الآخرين؟

إن ظاهر نصوص الآيات يسوغ الاجابة بالايجاب على السؤال من دون ريب. غير أننا نلاحظ أن تعبيري ابليس والشيطان يتضمنان معنى الهجاء والذم ، وأن هذا المعنى كان مفهوماً عند العرب . وهذا يجعلنا نحار في التوفيق بين ظاهر النص وبين هذا المفهوم الذي يسوغ استبعاد كون العرب قد عبدوهما أو اشركوهما مع الله كعقيدة دينية . فاذا كان يجب اخذ الآيات على ظاهر نصوصها فلا سبيل الى التوفيق إلا بالقول انهم عبدوهما وتولوهما ـ بلفظيهما ـ تزلفاً اليهما وتفادياً من اغوائهما واضلالهما، فالانسان مهما يكن عليه من عقيدة فانه لا يعترف بانه على ضلال ولو كان الأمر كذلك كما لا يخفى .

على أن مما يتبادر ايضاً ويستلهم من روح الآيات بل ونصوصها أن تعابير العبادة والتولي قد جاءت مجازاً وفي معرض التنديد بالمشركين والكفار ، وتوبيخهم من جهة ، وتصوير ما كان يقوم به ابليس والشيطان من أدوار الوسوسة والاغراء لهم ، وما كان هذا الدور يلقاه من نجاح فيهم واستجابة منهم من جهة أخرى .

الفصل الخامس

في عقيدة العرب بالله وتصورهم : ثم نبي فيهم

خطورة هذه العقيدة — جملة من الآيات التي تحكي اعترافهم بالله — ما في الآيات من دلالات وصور — الخطوة التطورية في هذه العقيدة — قدم وضوح فكرة « الله » نوعاً ما عن البعثة في اذهان العرب — قدم لفظ الجلالة واشتقاقه — أثر الكتابيين في هذه الخطوة — سعة نطاق انتشار العقيدة بالله — تمني العرب بعثة نبي فيهم وما فيه من حركة ذهنية جديدة — خطورة الحركة وبواعثها — تناقض موقف العرب من الدعوة النبوية مع هذه الحركة وعوامله: الحسد والاستكبار — الخوف على المركز والمنافع — عصبية التقاليد — صورة النبي في أذهانهم واصطدامها مع حقيقة السيد الرسول (ص) — أثر عقيدة البعث في الموقف — هدف تدين العرب قبل البعثة — استدراك .

— ١ —

من الواضح أن مدى عقيدة الشرك هو اشراك غير الله مع الله في العبادة والاتجاه والرجاء والخوف ، وهذا كان شأن عقيدة الشرك العربية قبل الاسلام التي كانت العقيدة العامة كما اشرنا الى ذلك من قبل ؛ حيث كان مشركوا العرب يعترفون بوجود الله ، ويعتقدون بألوهيته العليا وقدرته العظمى ، سواء في اشراكهم شركاء رئيسيين واعتبارهم إياهم أنداداً له ، او شركاء وسطاء وشفعاء واعتبارهم وسائل قربى اليه .

ولاعتراف العرب بالله الى جانب شركائهم ماديين وغير ماديين ، ورئيسيين وشفعاء خطورة لاتخفى في تصوير تطور الفكرة الدينية عندهم . وهذه الخطورة تزداد وضوحاً اذا لوحظ ان في القرآن آيات كثيرة جداً في صدد ملاحظة العرب لله واعترافهم بوجوده وألوهيته العليا وقدرته العظمى في صور ومناسبات عديدة ومتنوعة ،

نورد فيما يلي جملة من هذه الآيات :

١ — وقالوا لولا نزل عليه آيةٌ من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ... الأنعام ٣٧

٢ — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... الأنعام ٨

٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ... الأنعام ١٠٩

٤ — وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ... الأنعام ١٢٤

٥ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون ... الأنعام ١٣٦

٦ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ... الأنعام ١٤٨

٧ — وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها... الاعراف ٢٨

٨ — ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... يونس ١٨

٩ — هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين(١) لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ... يونس ٢٢

١٠ — قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ... يونس ٣١

١١ — وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم إذا

(١) أي لم يذكروا معهم شركاءهم

كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ... النحل ٥٣-٥٤

١٢ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون ... النحل ٥٧

١٣ — وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه(١) فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً ... الاسراء ٦٧

١٤ — قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ... المؤمنون ٨٤-٩١

١٥ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم .ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لايعقلون ... العنكبوت ٦١-٦٣

١٦ — فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون ... العنكبوت ٦٥

١٧ — وإذا مسّ الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ... الروم ٣٣-٣٥

١٨ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ... فاطر ٤٢

٢٠ — وإن كانوا ليقولون . لو ان عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين ... الصافات ١٦٧-١٦٩

٢١ — ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء مانعبدهم إلا

(٢) أي نسوا ما كانوا يدعون معه من شركاء .

ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ... الزمر ٣

٢٢ — وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه ثم اذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل له أنداداً ليضل عن سبيله ... الزمر ٨

٢٣ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن ارادني بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني الله برحمة هل هن ممسكات رحمته ... الزمر ٣٨

٢٤ — ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ... الزخرف ٩

٢٦ — ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ... الزخرف ٨٧

٢٥ — وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ... الزخرف ١٩ — ٢٠

وهذه الآيات على مايبدو من كثرتها التي تعمدناها لتجلية الموضوع في الذهن ليست كل الآيات التي تحكي اعتراف العرب بالله . ففي الآيات التي استعرضناها في فصل المشاقة من الباب الثالث جملة اخرى تحكي اعترافهم بالله وكون مشاقتهم للنبي (ص) إنما كانت من قبيل انكار نبوته ورسالته واتصالها بالله؛ كذلك في الآيات التي استعرضناها في فصل الملائكة صراحة باعترافهم بالله وألوهيته العظمى وكون الملائكة بناته سبحانه والمختصين بخدمته وتنفيذ اوامره في كونه ؛ هذا عدا ما في القرآن من آيات تمت الى هذا لم ننقلها اكتفاء بما أوردناه هنا وفي الفصول السابقة.

— ٣ —

والذي يمكن الاستدلال عليه من هذه الآيات وما في بابها هو :

اولاً إن اهل بيئة النبي (ص) او فريقاً منهم كانوا يعترفون بوجود الله كالٰه أعظم ، خالق السماوات والأرض وما فيها ، وانه مدبر الكون وربه ، بما في ذلك الملائكة والجان ، وانه بيده ملكوت كل شيء ، وانه هو الذي يسيطر على قوى

الطبيعة ويصرفها من شمس وقمر وكواكب وبحار ورياح ويسخرها لصالح المخلوقات، وانه هو الذي يحيي ويميت ويمنع ويرزق الناس .

ثانياً انهم او ان فريقاً منهم كانوا يعتبرون الله الملجأ الأعلى في عظائم الأمور وجسيم الأخطار والأهوال ، وانه لا يكشف الضر ولا يدفع الشر ولا يعطي الخير غيره . وكانوا حينما يواجهون الأخطار والأهوال ، ويصابون بالبلاء والكوارث يجأرون اليه ، ويدعونه وحده . على اعتبار انه هو القادر على انقاذهم ، ودفع الشر والكوارث والأخطار عنهم لا شركاؤهم ولا آلهتهم ولا شفعاؤهم .

ثالثاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان الله هو الذي يرسل الأنبياء والنذر ويؤيدهم بآياته وينزل عليهم ملائكته ، ويوحي اليهم بكتبه التي تحتوي تعليماته وأوامره وحلاله وحرامه .

رابعاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه ، وانه راض عنهم فيها وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء ويقولون انه لو لم يكن راضياً عن ذلك لما كانوا فعلوه .

ويتبادر لنا ان ماجاء في الفقرة الرابعة كان كالحلقة المتوسطة بين تفكير ديني قديم وتفكير ديني جديد ، وانه يمكن أن يكون المفسر لاعترافهم بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء واشراكهم معه بالعبادة والدعاء والاتجاه . فالمفروض أن العرب في اطوارهم الأولى كانوا وثنيين يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، وما انبثق في اذهانهم من عقيدة وجود الأرواح الخفية الخيرة والشريرة ، وانهم لم يكونوا قد تصوروا وجود الإله الأعظم بالصفات الواجبة له او مايقرب منها ؛ ثم اخذوا يسمعون ذكره وصفاته ، واخذت معانيه تدخل في اذهانهم شيئاً فشيئاً حتى دخلوا في طورهم الأخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن ، وهو التسليم بوجود إله أعظم له ملك السموات والأرض ، وبيده تدبير الأكوان ، وتسخير القوى الطبيعية ، وهو الملجأ الأعلى للناس في كل مايمكن أن يصيبهم من بلاء ، والقادر وحده على دفعه عنهم ، والمصدر الأكبر لكل مايرجونه من خير ؛ غير انهم لم يكونوا بعد قد وصلوا الى

اساغة فهم إله واحد غير مادي وغير مرئي فهماً تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء اساغة تامة ، فكانوا مع اعترافهم بالله على النحو الذي جاء في الفقرات الثلاث الاولى لم يروا لهم غنى عن معبوداتهم الأولى التي كانوا بها وبرموزها اكثر اتصالاً ومشاهدة في العبادة والاتجاه وطلب العون، والاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى والمصائب والأخطار ؛ وكانوا يعتقدون أنهم على حق في ذلك لأنهم كانوا يذهبون الى ان الله المتصف بصفات القدرة والعظمة والجبروت والخلق والبسط والقبض والأعطـــاء والمنع وتصريف مخلوقاته فيما يشاء وكيفما يشاء ما كان يبقيهم في الاستمرار في العبادة والأتجاه وطلب العون والاستشفاع بمعبوداتهم المادية والروحية او الطبيعية لو لم يكن راضياً عن ذلك مرددين في هذا الذهاب في الحقيقة ونفس الأمر صدى ما كان راسخاً في نفوسهم من عقائد موروثة ، وعدم استساغة استغنائهم عن معبودات اورموز مادية مشاهدة.

على ان مما يحسن التنبيه اليه أن العرب في هذا لم يكونوا بدعاً ولم تكن الصورة خاصة بهم بل لم تكن خاصة ببيئتهم وعصرهم ؛ فأصل الصورة ومداها غير منقطعي المثول للعين في مختلف الأدوار التي جاءت بعد ذلك وفي مختلف البيئات والأديان ايضاً.

— ٤ —

وهكذا نرى من خلال هذه الصورة خطوة تطورية تدل على أنهم قد ارتقوا في تفكيرهم الديني من عبادة المعبودات المادية والروحية والطبيعية وحدها الى فهم معنى الله وتصوره والأعتراف به؛ غير ان هذه الخطوة لم تكن تامة لانهم لم يكونوا قد وصلوا بعد الى اساغة الاكتفاء بالله وحده ايماناً تصورياً وغيبياً وتجريدياً كما اشرنا انفاً فكانوا كما عبرت عنهم آية يوسف : « وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون ... ١٠٦

وفي هـــذا التقرير المستلهم من نصوص الآيات نقض آخر لقول من قال ان العرب ظلوا في تفكيرهم الديني في نطاق المادية والحجرية الغليظة الجافية كما هو واضح.

— ٥ —

اما الزمن الذي وضحت فيه فكرة الله في أذهانهم فليس من سبيل الى تحديد مبدأه بالاستناد الى القرآن . ولكنا نرجح انه قبل البعثة بأمد غير قصير حيث أخذت اتصالاتهم بالعالم ورحلاتهم اليه تكثر ، وحيث اخذت معارفهم ومقتبساتهم تنموا وتتسع . وفي بعض الآيات دلالات على بعد عهد ذلك نوعاً ماعن حقبة البعثة؛ حيث تحكى قولهم انا وجـــدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون ، وتواصيهم بعدم اتباع النبي (ص) الذي يحاول ان يصدهم عما كان عليه آباؤهم كما ترى في هذه الأمثلة :

١ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ...
الأنعام ١٤٨

٢ — وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ... النحل ٣٥

٣ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ... سبأ ٤٣

٤ — وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا إختلاق . أءُنزل عليه الذكر من بيننا...
صاد ٦ — ٨

٥ — بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ...
الزخرف ٢٢

— ٦ —

ويتبع عدم حداثة وضوح فكرة الله في اذهان العرب ، ورجوع ذلك الى مدة غير قصيرة من قبل البعثة عدم حداثة لفظ الجلالة في اللسان العربي بطبيعة الحال .

ولقد قال المفسرون ان اللفظ مضعف او معدل من الالـٰـة ، وان هذه الكلمة مشتقة من أله بمعنى عبد او وله بمعنى حار او لاه بمعنى سكن الى الشيء كما قالوا ان اللاة مؤنثه. ومع ان الاشتقاقات الاولى لاتخلو من وجاهة فان القول الثاني اكثر

وجاهة في ما هو المتبادر ؛ حيث نرى من السائغ كثيراً ان يكون العرب قد عدلوا من « اللاة » لفظ الجلالة وجعلوه مذكراً لها حينما انبثق في اذهانهم معنى وجود الله كالٰه أعظم . وهذا بقطع النظر عن احتمال صلة تسمية اللاة بالمعبود البابلي القديم « اللاتو » على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، وما يمكن ان تدل عليه هذه التسمية او الصلة من كون اللاة هي لفظ عربي قديم الدلالة على المعبود. ولقد قدم ذكر اللاة في القرآن على العزى ومناة كما ان الروايات تقدمها في الذكر وخاصة في الحلف ؛ ولعل في هذا ما يمكن ان يلهم ان اللاة كانت صاحبة الاعتبار الاول او المعبودة الكبرى عند العرب ان لم يكن في عهد النبي (ص) ففي قبله بمدة ما . واذا صح هذا ففيه توجيه لرجحان الصلة الاشتقاقية او التعدياية بين « اللاة » ولفظ الجلالة .

على أننا نريد أن نستدرك شيئاً في صدد وضوح فكرة الله في أذهان العرب الذين كانوا يعترفون به . ففي سورة الاسراء وردت هذه الآية :

« او تأتي بالله والملائكة قبيلاً ... ٩٢

وفي سورة الفرقان وردت هذه الآية :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ٢١ »

فهذه الآيات وإن كانت تحكي عنهم تعجيزاً وتحدياً فانها تلهم أنهم كانوا يتخيلون الله شيئاً يمكن ان يروه ماثلاً أمامهم . ومع ذلك فاننا ننبه على ان العرب لم يكونوا في هذا بدعاً ، ولم تكن الفكرة خاصة بهم فقد كانت شاملة غيرهم ايضاً ؛ وفي علم الكلام الاسلامي بحوث متصلة بامكانية رؤية الله ماثلاً للعيان الانساني في الدنيا او الآخرة كما لا يخفى ، وهذا مما يوجد عند أهل الأديان السماوية ايضاً.

— ٧ —

والذي يتبادر لنا ان للكتابيين اثراً كبيراً او الأثر الأكبر في تلك الخطوة التطورية التي نبهنا عليها في انبثاق فكرة الله في اذهان العرب بوضوح ما ، فقد كانت النصرانية سائدة في اكثر الاقطار التي كان العرب يصلون اليها في اسفارهم ورحلاتهم ، وكان يدين بها كثير من العرب في اطراف الجزيرة كما كان يدين بها

عرب في قلب الجزيرة ، وقد كانت الجوالي اليهودية في الحجاز قوية بارزة لها اتصالات بالعرب ؛ وطبيعي جداً ان يكون بين اهل الكتاب والعرب تفاعل أدى بالعرب الى هذا الطور الجديد في التفكير الديني ، فاخذوا عنهم فكرة الاله الاعظم او وضحت هذه الفكرة التي قد تكون طبيعية الانبثاق في الذهن البشري مع شيء من الغموض ، ولكنها لم تستطع ان تتغلب على ما كان راسخاً فيهم من عقائد موروثة فسلموا من جهة بالله واعترفوا به ، واحتفظوا من جهة بمعبوداتهم وعقائدهم وتقاليدهم ثم استمر التطور حسب تفاوت المدارك والبيئات الى ان اخذ يظهر فيهم من يسيغ فهم الله والتوجه اليه وعبادته وحده فهما غيبياً مجرداً ، ويرى ما في عبادة المعبودات المادية والروحية ورموزها مع الله من سخف فيأنف من الاستمرار عليها ، وينبذها وهم طبقة الحنفاء والصابئون والباحثون عن ملة ابراهيم الحنيفية الذي سيأتي الكلام عنهم بعد . وفي الآيات القرآنية الكثيرة التي وردت عن أهل الكتاب او في صدد محاجة العرب فيهم شواهد على ما نقوله . وقد نقلنا اكثرها في فصول الباب الاول ومنها ما سوف نورده بعد ؛ كما اننا سنعود الى هذا الموضوع في فصل اليهودية والنصرانية واثرهما في العقائد العربية ايضا .

— ٨ —

هذا ؛ ونحب ان نلفت النظر الى كثرة الآيات التي تقرر او تدل او تلهم اعتراف العرب بالله كالاله أعظم واسلوبها ومضمونها لنقول ان فكرة وجود الله والاعتقاد به على هذا الوجه كانت واسعة النطاق في عهد النبي (ص) بحيث يسوغ ان يقال انها كانت تشتمل اهل المدن وسكان البادية بوجه الاجمال ، وعقيدة الشرك التي هي عقيدة العرب عامة دليل على ذلك . فاشراك غير الله مع الله سواء كان اشراكا رئيسياً او ثانوياً ، ينطوي فيه ذلك الاعتراف كما هو المتبادر . وهذا كان ينتظم اهل عصر النبي (ص) من العرب عامة باستثناء الاقلية الكتابية منهم ، سواء منهم الحضر والبدو . والآيات القرآنية في الاعم الاغلب حتى التي فيها حملات على المعبودات المادية والطبيعية والروحية انما كانت في صدد إشراك العرب اياها مع الله في العبادة والاتجاه والتنديد بسخف ذلك وتناقضه مع فكرة الاعتقاد بالله على ما يتضح عند امعان النظر فيها .

ومن الممكن ان يشار كمظهر من مظاهر الاتجاه العربي العام في هذا الى اشتراك العرب حضرهم وبدوهم على اختلاف منازلهم في الجزيرة واطرافها في مناسك الحج وشهود موسمه بقطع النظر عن اختلاف الافكار والطبقات والاصنام والآلهة على ما ذكرناه في فصل الحج ، وقدومهم في موسم معين لاءداء هذه المناسك والطواف حول بيت الله العتيق في ظل هدنة مقدسة عامة .

ومن المفيد ان نشير الى ان العرب قد اعتادوا فيما اعتادوه من مظاهر اعترافهم بالله استعمال كلمة « الله » في أيمانهم ، وقد مر في الآيات التي نقلناها شيء من ذلك كما انهم اعتادوا ان يستعملوا كلمة « اللهم » في دعائهم كما جاء في آية سورة الأنفال ٣٢:

«واذقالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء..»

وقد ذكرت الروايات انهم كانوا يستعملونها في عقودهم وكتاباتهم ، وان تسمية عبد الله كانت كثيرة الشيوع ؛ ففي كل هـــذا قرائن مؤيدة لسعة شمول الفكرة كما هو واضح .

— ٩ —

وفي بعض الآيات التي استعرضناها قبل قليل ما يمكن ان يرى فيه حركة ذهنية جديدة في الطور الديني الجديد الذي دخل فيه العرب ؛ حيث حكت آية سورة فاطر (٤٢) ما كان يصدر من العرب قبل البعثة من أيمان مغلظة على انهم إذا جاءهم نذير من قبل الله ليكونن اهدى من احدى الامم ؛ وحيث حكت آيات سورة الصافات (١٦٥ — ١٦٩) قولهم قبل البعثة ايضاً انهم لو اتاهم كتاب كما جاء غيرهم من الامم السابقة لاتبعوه وكانوا عباداً مخلصين لله .

وليس من محل للشك في ان القائلين من العرب قد قصدوا باحدى الامم اليهود والنصارى لانهم هم الذين كان عندهم كتب من الله ، وهم الذين كانوا يعتبرون انفسهم ويعتبرهم غيرهم انهم مؤمنون بما جاء به رسل الله وانذروه عن الله . وقد اشير إلى هذا المعنى بشيء من الصراحة في آيات من سورة الأنعام :

«وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . ان تقولوا إنما انزل

الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١) . او تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ... ١٥٥ — ١٥٧

ولهذه الحركة الجديدة دلالة خطيرة ولاريب على استمرار التطور في تفكير العرب الديني واتجاههم نحو الله ، وعلى ما كان عندهم من معلومات والمام باحوال النصارى واليهود واثر النصرانية واليهودية في هذا التطور .

— ١٠ —

ويمكن تفسيرها اولاً بان فريقاً من الذين كانوا يعترفون بوجود الله ، ويعتقدون انه الملجأ الاعلى والاله الاعظم ، اخذوا يرون انفسهم في عماية عن الطريق المستقيم البين من الوجهة الدينية ، وانهم يخبطون خبط عشواء في اتخاذ الشركاء والاولياء والشفعاء وعبادتهم واشراكهم مع الله في الدعاء والخضوع والاتجاه ، فصاروا يتمنون ان يبعث فيهم نبي بالبيان الواضح والصراط القويم حتى يتبعوه ويهتدوا به . وثانياً بان العرب كانوا يسمعون اخبار الكتب السماوية التي بين يدى اليهود والنصارى وأخبار الانبياء الذين أنزل الله كتبه عليهم وما في هذه الكتب من شرائع وبينات جعلت اتباعها يرون أنفسهم أنهم على هدى من الله وعلم بصفاته وواجباتهم نحوه وبما أحله وبما حرمه . الخ الخ ، وكانوا يسمعون من اليهود من الزهو والتبجح والاستعلاء بسبب كون الانبياء والرسل منهم ، وكونهم الشعب الذي اختاره الله لرسالاته وكتبه ، فاثار هذا غيرة ذلك الفريق العربي وانانيته ، وجعله وقد آمن بوجود الله الذي يؤمن به اليهود صراحة والنصارى مؤولاً والذي هو الذي يرسل الانبياء إلى الامم بالكتب والبينات ، يتمنى ويتطلع إلى نبي يبعثه الله في العرب ليهديهم في أمور دينهم ودنياهم ، ويكون لهم من الاعتزاز والفخر في نبوه عربية ، وكتاب سماوي

(١) أي انزلنا هذا الكتاب المبارك لتتبعوه ولئلا تقولوا أن كتب الله إنما جاءت لطائفتين من قبلنا وبلسانها ولم نطلع عليها وانه لو أنزل علينا كتاب مثلهم بلساننا لكنا أهدى منهم .

عربي ما كان لليهود والنصارى الذين يزهون عليهم فلا يقاومون دونهم مقاماً وفخراً وهداية . وقد احتوت آيات كثيرة حكاية ما كان يبدو من اليهود والنصاري وخاصة اليهود من زهو واستعلاء وتبجح ودعوى عريضة، نقلنا اكثرها في فصول سابقة(١). ونرجح أن مثل ذلك بل واكثر منه كان يصدر عنهم قبل البعثة وخاصة بسبيل تقرير ميزتهم على الناس ، ومركزهم المادى والادبي في الحجاز ، فيثير في نفوس العرب ما يثير من غضاضة وغيرة ورغبة . وثالثاً بان هذا الفريق العربي الذي كان يتمنى بعثة نبي وينذر باتباعه والاهتداء بهديه كان يرى خلافاً ونزاعاً وتنافراً وتناظراً بل وقتالاً وكيداً بسبب الامور الدينية بين اليهود والنصارى ؛ كل ملة في داخلها اولاً ، والملتان كل منهما ازاء الاخرى ثانياً ، وأن هذا كان موضوع احاديثه واستغرابه وهدف انتقاده وسخريته ، فكان يقول ما حكته آية فاطر . ولعل منهم من كان يريد أن يتنصر أو يتهود رغبة في أن يكون صاحب كتاب ورسول كما فعل بعض العرب ثم يتوقف ويتردد بسبب ما يسمعه أو يراه من ذلك الخلاف والنزاع .

ولقد أشار القرآن إلى هذه الاختلافات الدينية ، في آيات كثيرة مكية ومدنية منها ما نقلناه في فصول سابقة (٢) ، ومنها ما ننقل بعضه في ما يلي :

١ — وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ... البقرة ١١٣

٢ — وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم ... البقرة ٢١٣

٣ — إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ... آل عمران ١٩

---

(١) اقرأ بحث اليهود في الفصل الثالث من الباب الاول واقرأ آيات البقره ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١٣٥ والنساء ٤٦ — ٥٠ والمائدة ١٩ مثلا .

(٢) اقرأ فصل الجاليات الاجنبية في الباب الاول واقرأ آيات البقرة ٢٥٣ ومريم ٣٥ — ٣٧ والنحل ٧٦ — ٧٨ وفصلت ٤٥ والجاثية ١٦ — ١٧ مثلا .

٤ — ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به . فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ... المائدة ١٤.

واسلوب الآيات ماتقلناه هنا ونقلناه سابقاً وفحواها وما فيها من دفاع عن اصل الدين وصحة الكتب السماوية وقدسيتها وصفائها ، ومن عزو الاختلافات والعداوة والبغضاء الى الانحراف والبغي والاهواء يحمل على الترجيح بل على اليقين بان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة وخاصة في مكة ويثرب كانوا على اطلاع غير قليل على احوال اليهود والنصارى وخلافاتهم ومذاهبهم ومشاقاتهم ومجادلاتهم ومقاتلاتهم بسبب الامور الدينية والخلافات المذهبية ،وان هذا مما كان يثير في العرب الحيرة والسخرية ويجعل لهم مجالاً للاحتجاج والانتقاد ، ويحملهم على تمني ماتمنوه والقول بأنهم سيكونون اهدى منهم إذا جاءهم نذير وأنزل عليهم كتاب .

— ١١ —

ورابعاً بان يكون فريق من العرب سمع من بعض الاحبار والرهبان بشرى اقتراب بعثة نبي عربي وبصفات هذا النبي ،فكان مرتقباً مؤكداً انه اذا جاء ليكون العرب به اهدى من الامم الاخرى ولا ينقسمون كما انقسمت احزاباً وشيعاً متنازعة متباغضة متشادة .

وفي القرآن بعض الملهمات المؤيدة لذلك . ففي سورة الاعراف وردت هذه الفقرة:

« الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... ١٥٧

ولا يمكن ان يكون محل للريب ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهرة يسمعها اليهود والنصارى بل وتوجه اليهم بنوع خاص مالم يكن هؤلاء يجدون في كتبهم الدينية صفات هذا النبي الامي باسلوب ما ويبشرون بقرب ظهوره . ومن المحتمل جداً ان لم نقل من المحقق ان على هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئة النبي (ص) . وفي سورة الصف هذه الآية :

« واذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين

يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ... ٦

والآية مدنية ؛ وبالاضافة الى انها احتوت تقريراً ايمانياً عن حادث هو عند المسلم صادق كل الصدق في حكايتها خطاب عيسى (ص) لبني اسرائيل، فانه ليس من محل الريب ايضاً ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهرة ويسمعها اليهود والنصارى مالم تكن بشارة عيسى (ص) هذه مما يؤيدها النصارى على الاقل ويذكرونها، ومن المحتمل جداً ان لم نقل من المحقق ان هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئة النبي (ص) .

وفي سورة البقرة هذه الآية :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ... ٨٩

وقد قال المفسرون في سياق تفسيرها استناداً الى الروايات ان اليهود كانوا يخبرون العرب بقرب بعثة نبي منهم ، ويقولون لهم انه سيكون من حزبهم وانهم يتضامون معه ضدهم زهواً وتبجحاً . وروح الآية ومضمونها وخاصة جملة « فلما جاءهم ماعرفوا » تجعل هذا التفسير وجيهاً كل الوجاهة .

وفي سورة البقرة ايضاً هذه الآية في سياق سلسلة آيات عن ابراهيم واسماعيل (ص) ورفعهما قواعد البيت المحرم وتهيئته للعاكفين والطائفين وللركع السجود:

« ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انت العزيز الحكيم ... ١٢٩

وروح آيات السلسلة ومضمونها يدلان على ان ضمير الغائب في الآية هو عائد للعرب ذرية ابراهيم واسماعيل (ص) . ومع ان الآية تحتوي تقريراً ايمانياً هو عند المسلم صادق كل الصدق في حكايتها دعاء ابراهيم واسماعيل (ص) فاننا لانستبعد ان لم نقل اننا نرجح استناداً الى ماقررناه في مناسبة سابقة من قوة احتمال تداول قصص ابراهيم (ص) التي لم تذكر في التوراة بين العرب قبل البعثة واعتقادهم بصلتهم الابوية والدينية به ان تكون دعوة ابراهيم واسماعيل (ص) مما كان يتناقله العرب قبل البعثة ويستندون اليه في ارتقابهم بعثة نبي منهم فيهم وتمنيهم قرب هذه البعثة .

— ١٢ —

وقد يكون من الطبيعي بعد هذا ان يرد سؤال عن العوامل التي دفعت العرب الذين كانت هذه افكارهم وامنيتهم ، وهذا مبلغ تطورهم الديني الجديد الى ذلك الموقف العجيب الذي وقفوه من النبي (ص) في المرحلة الأولى من تاريخ دعوته ، وخاصة في عهد مكة ، والمتناقض كل التناقض مع تلك الأفكار والأمنية والتطور.

وننبه اولاً على أمر مهم وهو ان موقف جمهرة العرب من الدعوة النبوية وخاصة في العهد المكي وفي مكة قد كان بتأثير زعماء مكة وكبرائها ونبهائها وسادتها واغنيائها كما تقرره الآيات القرآنية العديدة التي نقلنا بعضها في فصل نظام الحكم والطبقات من الباب الثاني (١) من جهة وأن أولئك الزعماء والكبراء والسادة الذين حملوا لواء الجدل والحجاج والمعارضة والصد عن الدعوة النبوية هم في الأغلب الذين حكت آيات القرآن اقوالهم التي كانت تبدر منهم قبل البعثة مثل آيات فاطر ٤٢ والصافات ١٦٥ — ١٦٩ .

وبعد هذا التنبيه نقول جواباً على السؤال ان في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على انه كان هناك عوامل عديدة هي التي غلبت زعماء مكة وكبراءها على امرهم واوقعتهم في هذا التناقض العجيب .

— ١٣ —

منها الحسد والاستكبار والترفع عن اتباع النبي (ص) بالذات ، واستخفافهم لشأنه ، وغيظهم من اختصاصه بالرسالة الالهية من دونهم وهم يرون انفسهم اعظم مركزاً وأضخم ثروة واعرض جاهاً وابعد نفوذاً واسمع كلمة منه كما جاء في آيات عديدة ننقل منها ما يلي :

١ — واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ... فاطر ٤٢ - ٤٣

٢ — ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا لولا نُزل هذا

(١) آيات سبأ ٣١ — ٣٣ والبقرة ١٦٦ وابراهيم ٢١ والاحزاب ٦٧ مثلاً

القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون ... الزخرف ٣٠ - ٣٢

٣ — أأُنزل عليه الذكر من بيننا ... ص اد ٨

ومنها الخشية من فقد ما كان لهم ولمكة من امتيازات على العرب ، وما كان يعود عليهم من منافع عظيمة من هذه الامتيازات التي كانت لهم بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة ، وبسبب أمن منطقة البيت المحرم كما جاء ذلك حكاية صريحة عنهم في احدى آيات سورة القصص :

«وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا ... القصص ٥٧

حيث تفيد ان زعماء مكة تصوروا ان متابعة النبي (ص) ستؤدي الى الغاء كل ما كان لهم والمدهم من الامتيازات ، وكل ما كانوا عليه من تقاليد ، ورأوا في ذلك فقد اسباب معاشهم ومظاهر عزتهم وحرماتهم ، وتعريضهم للخطر وجعلهم مأكلة سائغة للآكلين ، ونهباً سهلاً للناهبين . ولعل هذا من اهم ما استغلوه في تخويف سواد مكة من متابعة النبي (ص) لانه يمت الى وسائل حياتهم مادية كانت او أدبية .

ومنها عصبية التقاليد التي كانت شديدة الرسوخ فيهم ولم يكن من السهل التغلب عليها ، والتي تتضاءل معها النظريات وقوة المنطق ، وتعمى فيها البصائر . وقد شرحنا هذه العصبية وآثارها استلهاماً من آيات أوردناها في الفصل الثاني فلا نرى ضرورة للاعادة هنا .

— ١٤ —

ومنها الصورة التي تصوروها « للنبي » ومظهر « النبوة » والتي تصور ناحية من تفكير العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ ثم مارأوه من تناقض لها في شخص النبي (ص) ومظهره وقدرته . فقد تصوروا أن النبوة تخرج « النبي » من الطبيعة البشرية إلى ما فوقها ، ويصبح قادراً على خرق نواميس الكون والسنن الاعتيادية. وقد كان لما عرفوه من قصص الامم والانبياء (ص) اثر مافي هذه الصورة ولاريب ،

حيث لابد من انهم قد عرفوا من هذه القصص التي لم تكن مجهولة في الاوساط العربية قبل البعثة على ما قررناه ودللنا عليه في مناسبة سابقة أن الله قد كلم موسى (ص) تكليما ، وأنه تراءى له في شجرة الطور ، وأنه تجلى على الجبل وأنزل عليه الالواح مكتوبة من السماء وقد شاهدها بنو اسرائيل ولمسوها ، وأن عصاه كانت تحول إلى ثعبان هائل يلقف كل شيء ، وانه جلب على مصر من آيات البلاء ما فيه الفزع الاكبر من الطوفان إلى الجراد إلى القمّل إلى الضفادع إلى الدم ، وأنه ضرب بعصاه البحر فانفلق عن طريق يابسة مشى فيها بنو اسرائيل ونجوا من فرعون وجنوده ، وأنه ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشره عيناً على عدد اسباط بني اسرائيل وأن الله ظللهم بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأنه أمات فريقاً منهم بالصعقة تأديباً ثم احياهم ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا من هذه القصص أن يحيى (ص) ومن قبله اسحق (ص) قد ولدا من اب طاعن وام عاقر بمعجزة ربانية ، وأن عيسى (ص) قد ولد بدون اب وبمعجزة خارقة جعلت المسيحيين يعتقدون ببنوته لله ، وانه تكلم في المهد بكلام الانبياء ، وأنه ابرأ الاكمه والابرص واحيا الموتى ، ونفخ في الطين فصار طيراً ، وأن الله قد أنزل عليه مائدة من السماء شاهدها الحواريون واكلوا منها ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا أن الله قد سخر الجبال والطير لداود (ص) والريح والجان لسليمان (ص) ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا بمعجزة طوفان نوح (ص) وفلكه ، وبقصة الملائكة الذين نزلوا على ابراهيم (ص) ثم على لوط (ص) وكلموهم ، وخسفوا بلاد قوم لوط بسبب ما ارتكبوه من الآثام ؛ ولا بد من انهم كانوا يعرفون من القصص العربية المتداولة بينهم عن غير طريق اهل الكتاب ما كان امر رسالة هود وصالح وشعيب (ص) وما كان من معجزة خروج ناقة صالح (ص) من الصخرة وتدمير قومه ، وما كان من الريح الصرصر الذي هلكت به عاد ويوم الظلّة الذي هلك به قوم شعيب إلى آخر هذه القصص النبوية الخارقة ، فتصوروا «النبي» تلك الصورة التي ساعد على قيامها في أذهانهم ماسمعوه وعرفوه عن الانبياء السابقين (ص) ، ثم رأوا سيدنا محمداً (ص) يخبر أن الله قد اوحى اليه بالنبوة وارسله لهداية الناس إلى الهدى ودين الحق ، ويتلو عليهم آيات الكتاب التي يخبر أن الله ينزلها عليه

بواسطة ملائكته، بينما هو منهم وبشر مثلهم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويمشي في الاسواق كما يمشون، ويعتريه مايعتريهم من أعراض، ويحتاج إلى ما يحتاجون اليه من شؤون، ويتمتع بما يتمتعون به من متع؛ ولم يروا فيه صفة خاصة ولا علامة بينة ولا قوة خارقة، ولم يروا الملائكة التي تنزل عليه، فلذا هشوا من هذا وطالبوه بالآيات والمعجزات كما كان الانبياء الاولون يأتون بها، واقترحوا عليه إنزال الملائكة من السماء لتأييده، وتنزيل كتاب مكتوب من السماء يلمسونه ويقرأونه، وتفجير الانهار واظهار كنوز الارض واحياء آبائهم الاولين الى اخر تلك المقترحات التي حكتها الآيات القرآنية والتي اوردنا كثيراً منها في فصول المشاقة وابحاث السحر والسحرة والكهانه والكهان والشعر والشعراء والملائكة والجن؛ فكان جوابه بلسان القرآن سلبياً مكتفياً بالاشارة الى القرآن الذى يوحي اليه به كما ترى في الآيات التالية:

١ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلاتتفكرون ... الأنعام ٥٠

٢ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله ... الأنعام ١٠٩

٣ — قل لاأملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ... الاعراف ١٨٨

٤ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقائنا أئت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى الي إني اخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ... يونس ١٥

٥ — ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد ... الرعد ٧

٦ — وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً. او تكون لك

جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ... الاسراء ٩٠ — ٩٣

٧ — وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ... العنكبوت ٥٠ — ٥١

غير ان هذه الاجوبة والردود القرآنية التي تجلى فيها الصميمية والصدق لم تكن لتقنعهم وتصرفهم عن الصورة التي تصوروها « للنبي » وتقنعهم عن المطالبة بالآيات والخوارق ؛ ثم اشتدت المشاقة واختلطت فيها عواطف الحقد والحسد والغيظ فاعمتهم عن رؤية الحق الواضح ، والسناء اللامع ، والعقل الراجح والصدق والصميمية والاخلاص في القول والعمل والدعوة الى الله ومكارم الاخلاق ، وجعلتهم يعللون دعوى النبي (ص) بما كان قائماً في اذهانهم من معارف وعقائد ، ويقولون انه شاعر حيناً وكاهن حيناً وساحر حيناً ومسحور حيناً ومجنون حيناً ، وان الشيطان هو الذي يلقنه مايقوله حيناً ، وان بعض الناس يعلمونه حينا ، وان ما يقوله هو اساطير الأولين حيناً على ما ذكرته الآيات التي اوردنا شيئاً كثيراً منها ، ولم يتبدل موقفهم الا بعد ان اشتد امره سياسيا وحربيا ، وهلك اكثر الزعماء والمعنتين و المجادلين اللجوجين والخصوم العنيدين المستكبرين والمغيظين .

— ١٥ —

ومنها عقيدة البعث بعد الموت التي كانت ركنا من اركان الدعوة النبوية ؛ ولعلها كانت من اشد العقبات في سبيل هذه الدعوة في العهد المكي ، كما كانت اكثر مواضيع القرآن المكي تكراراً وحفاوة ؛ وقد حكت الآيات الانكار والتحدي والأعراض والسخرية التي كان العرب يقابلون بها تقريرات القرآن وانذاره وتبشيره عن اليوم الآخر وبعث الناس بعد موتهم لمحاسبتهم عما فعلوه في حياتهم الدنيا وتوفية كل نفس ما عملت من خير وشر ، ومجازاة المحسنين المؤمنين بالجنة

والمغفرة والرضوان ، والمسيئين الكافرين بالنار والخزي والخسران كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ... الأنعام ٢٩

٢ — ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ... هود ٧

٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... النحل ٣٨

٤ — وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة او حديداً . او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً ... الاسراء ٤٩-٥١

٥ — قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون . لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ... المؤمنون ٨٢-٨٣

٦ — وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزّق أنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ... سبأ ٧-٨

٧ — وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوْا في آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم ... سبأ ٣ — ٥

٨ — وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ... الجاثية ٢٤-٢٥

وكثرة الآيات المنذرة المبشرة باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه قد تدل بالاضافة الى ماينطوي فيها من حكمة ربانية وحقيقة ايمانية على أن المشكلة لم تكن

قائمة في أذهان بعض الطبقات دون بعض ، وإنما كانت مشكلة الجميع ؛ الوثنيون والمشركون مع الله والمتقربون اليه بالشفعاء والوسطاء ، حيث يصح أن يقرر انهم لم يهضموا أن الناس بعد ان يصبحوا تراباً ويمزقوا كل ممزق ان يبعثوا ثانية ليحاسبوا على ما كان منهم في الحياة الدنيا من خير وشر وصلاح وآثام ونفع وضر وايمان وكفر.

والذي نرجحه ان عدم وجود بيان صريح ووصف واضح في الديانتين اليهودية والنصرانية عن البعث واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب كان من اسباب تعقد المشكلة في أذهان العرب ، ومقابلة الوعد والوعيد بالاعراض والاستخفاف ؛ من حيث كونهم لم يسبق لهم إعداد لاساغة هذه الحقيقة الايمانية الغيبية ؛ كما كان امرهم في إساغة فكرة الله المجردة ، وفكرة الملائكة وبعثة الأنبياء ووحي الله اليهم بالآيات والكتب وتأييدهم بالمعجزات .

— ١٦ —

ولسائل يسأل عن الهدف الذي كان العرب يستهدفونه والحالة هذه في التدين بدين ما ، والاعتراف بالله والقيام بواجبات العبادة له او لشركائهم وشفعائهم وتمنيهم بعثة نبي فيهم ونزول كتاب رباني اليهم يتبعونه ويهتدون بهديه .

وجواباً على هذا نقول ان المتبادر ـ بقطع النظر عن كون الدين يكاد يكون غريزة في البشر ، وعن كون العقائد حينما تتأصل ويتقادم عليها العهد تصبح لاشعورية ولا تتوقف على تفكير وتصويب ـ انهم كانوا يستهدفون مايستهدفه الناس الآخرون الذين يتدينون بدين ما ولا يقوم في أذهانهم معنى لاحياة الأخروية وخاصة على الصورة التي جاءت مفصلة في القرآن ، وهو الحصول على رضاء الله وعطفه وبره ومعونته وحمايته ، ومعرفة مايرضيه ويسخطه ، وضمانة نيل الخير ودفع الضر ؛ فلهم مطالب وآمال ، ومخاوف وهواجس في حياتهم الدنيا : يحبس عنهم المطر ويصيبهم القحط ويتعرضون للمصائب والأمراض ، ويركبون البحر ويواجهون الأخطار ، ويقومون بالأسفار ، وتنشب بينهم الحروب ، ويعوزهم الرزق والذرية ، وتخيفهم اشباح الظلام والاحلام والأرواح الخفية المؤذية ، وتفزعهم مظاهر الطبيعة من عواصف وزلازل وكسوف وخسوف وبروق وصواعق ورعود ، وكل ذلك من شأنه ان يحملهم

على التدين والدعاء لله او الآلهة والشفعاء معه وعبادتها والتزلف اليها والرغبة في معرفة مايرضيها ويسخطها ؛ أي أن تدينهم إنما كان الدنيا وأحداثها ؛ اما خوفاً من بلاء حاق او قد يحيق بهم ، ودفعاً لشر وقع او قد يقع عليهم ،واما جلباً لنعمة او رزق او خير او ربح او نصر يرجون ان يصيبوه .

وفي القرآن آيات عديدة تمثل هذا التفكير الدنيوي البحت ، وفيه كذلك مساجلة للعرب في تفكيرهم هذا وهو يرد عليهم بان شركاءهم الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً ، ولا عوناً ولا نصراً ، كما ان ما فيه من ضروب الأمثال على ما في الدنيا من متاع زائل ، وعلى مافي التمسك او الاكتفاء بها من خطأ وباطل انما هو بسبيل الرد على هذا التفكير الدنيوي الذي كان كل همهم وهدفهم في التدين والعبادة .

ولقد اوردنا في فصل الشرك آيات عديدة من هذا الباب ، وفي ما يلي امثلة اخرى منه ايضاً :

١ ـ فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو اشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ... البقرة ٢٠٠

٢ ـ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ... الأنعام ٣٢

٣ ـ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ... يونس ٧ ـ ٨

٤ ـ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ... هود ١٥ ـ ١٦

٥ ـ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً .. الاسراء ١٨

٦ ـ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ... القيامة ٢٠ ـ ٢١

٧ ـ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... الانسان ٢٧

ولقد كانوا كل ما توعدهم الله بالآيات القرآنية بالعذاب تبادر الى اذهانهم انه انما يتوعدهم بعذاب قريب في الدنيا يمشك ان يأخذهم قياساً على ما سمعوا من التدمير العاجل الذي حل بعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فينتظرون وينظرون ، ولما لم يقع تساءلوا تساءل المستغرب المنكر عن موعده ، واخذوا يستعجلونه تحدياً واستهتاراً من جهة ، ولأنهم لم يكونوا ليصدقوا بالعذاب الاخروي ويسيغوا احتمال بعثهم بعد الموت ليذوقوه من جهة اخرى كما ترى في الآيات التالية :

٣ — ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ... هود ٨

٤ — ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ... يونس ١١

٥ — خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ... الانبياء ٣٧ — ٤٠

٦ — وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ... الكهف ٥٨

٧ — ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ...
العنكبوت ٥٣ — ٥٤

٨ — أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد ... قاف ١٥

ونحب ان نستدرك أمراً ؛ فمع ما قررناه عن عدم اساغة العرب امر البعث والحساب والثواب والعقاب على النحو الذي انذر وبشر به القرآن ، وكون هذه العقيدة من اكبر المشاكل التي عرضت لهم في الدعوة النبوية وانكروها فأنهم كانوا يعتقدون بخلود الروح بشكل ما بعد الموت على ما سوف نذكره في فصل آخر.

الفصل السادس

في الحنفاء او الصابئين واتباع ملة ابراهيم (ص)

خطورة الموضوع في التطور الديني قبل البعثة ـ الصابئون في القرآن وحقيقة امرهم ـ ترجيح كون التسمية لموحدي العرب قبل البعثة ـ تفنيد صلة صُبة العراق بهم ـ احاديث وروايات عن اسماء موحدي العرب واتباع ملة ابراهيم ـ الحنفاء والحنيف في الآيات القرآنية ـ إشتقاق الكلمة ومفهومها ـ الحنفاء والصابئون شيء واحد ـ استدلالات قرآنية بشأن النبي (ص) قبل بعثته ـ حفاوة القرآن بذكر ملة ابراهيم ودلالتها ـ الحجاج مع اليهود ودلالته ـ تكرار حكاية مواقف ابراهيم مع قومه في القرآن ودلالته ـ ترجيح كثرة عدد الصابئين والحنفاء ـ دورة شاملة لتطور الحركة الدينية عند العرب قبل البعثة ـ تحمل بيئة النبي (ص) التفاوت الذي احتوته الصور ـ وحدة الاتجاه بين اجزاء الصورة .

— ١ —

اشرنا في الفصل السابق اشارة مقتضبة الى طبقة الحنفاء او الصابئين او اتباع ملة ابراهيم (ص) ومركزها من الحركة التطورية الدينية الجديدة التي ظهرت في بيئة النبي (ص) قبيل البعثة .

وهذا الموضوع ذو خطورة خاصة في صدد تصوير هذه الحركة ونضوجها او بالأحرى قربها من النضوج ، وذلك ما جعلنا نفرد فصلا خاصاً به نتعرف فيه الى هذه الطبقة وظروف ظهورها ودلالته .

— ٢ —

في القرآن ثلاث آيات ذكر فيها الصابئون في اثنتين منها هم والمؤمنون واليهود والنصارى فقط ، وفي الثالثة ذكروا مع هؤلاء مضافاً اليهم المشركون والمجوس . وهذه هي الآيات :

١ ـ إن الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ...
البقرة ٦٢

٢ ـ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... المائدة ٦٩

٣ ـ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ... الحج ١٧

ولقد قال المفسرون (١) عن هؤلاء الصابئين (١) انهم طائفة من المجوس (٢) عبدة الملائكة (٣) عبدة الكواكب (٤) يعبدون الشمس ويصلون اليها خمس مرات في اليوم (٥) بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرأون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون الى الكعبة قد اخذوا من كل دين شيئاً (٦) ان اصل دينهم هو دين نوح (٧) انهم الذين لا دين لهم !

وقد غاب عن المفسرين اذ ذكر المجوس والمشركين في آية الحج مع الصابئين ينبغي ان يبعدهم من المجوسية والشرك الذي منه عبادة الكواكب والملائكة مع الله ؛ وإن ذكرهم في آيتي البقرة والمائدة مع المؤمنين واليهود والنصارى اي مع الموحدين توحيداً صريحاً او مؤولاً يسوغ القول انهم هم الآخرون موحدون بشكل من الاشكال .

ولقد استقر في الاذهان ان هذه التسمية هي للنحلة الموجودة الآن في العراق والتي يطلق عليها اسم « الصُّبَّة » الذي يظن انه تحريف « الصُّبأ او الصَّبئة » بل ان بعض المفسرين قالوا هذا في ماقالوه . ومعروف ان بين رجالات الادب العربي القديم أفراد مشهورون من هذه النحلة احتفظوا بنسبتهم اليها منهم « ابو اسحاق الصابي » . ولقد اورد بعض المفسرين قصة حول هذه النحلة وهي ان المأمون مر بقرية فيها طائفة تعبد الكواكب ، فاراد ان يعتبرهم من المشركين وان لايقبل

(١) اقرأ تفسير آية البقرة ٦٢ في الطبري والنسفي والرازي وابي السعود والخازن والبيضاوي والطبرسي .

منهم الجزية ، فقيل لهم انهم « الصابئون » الذين ورد ذكرهم في القرآن مع اليهود والنصارى وينسحب عليهم ماينسحب على هؤلاء فأبقاهم على الذمة واخذ منهم الجزية .

الى جانب هذا نذكر ان الكلمة اشتقاق عربي أصيل من صبأ أو صبا بمعنى مال وانحرف (١) ، وقد وردت صيغة من هذا الاصل بهذا المعنى في سورة يوسف :

« وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ... ٣٣

ونذكر ان العرب في عهد النبي (ص) كانوا يقولون للذي يفارق دين آبائه ويدخل في دين جديد « صابيء » وانهم سموا النبي (ص) بهذا الاسم وسموا به المسلمين الاولين لاول عهد الاسلام ، وكانوا يقولون عنهم « الصبأة والصابئين » ؛ ففي قصة اسلام عمر (رضي) التي رواها ابن هشام (٢) ان عمر (رضي) كان يقول عن النبي (ص) انه صابيء ، وأنه لما أسلم وجاء لاول مرة بعد اسلامه الى فناء الكعبة شاخ الأنف قال المجتمعون ان ابن الخطاب قد أقبل عليكم بوجه صابيء . وفي صحيح البخاري (٣) ان امرأة بدوية عبرت عن النبي (ص) بقولها « ذلك الذي يقولون عنه الصابيء » . وفي أسد الغابة حديث عن الحارث الغامدي أنه رأى جماعة من قريش قد تجمعوا على رجل من مكة فقال لأبيه ماهذه الجماعة فقال هؤلاء قوم اجتمعوا على صابيء لهم فأشرفنا فاذا رسول الله (ص) يدعوا الناس الى عبادة الله وحده .

فاطلاق التسمية على النبي (ص) والذين آمنوا به في اول عهد الاسلام قد يزيد في قوة استدلال كون الكلمة القرآنية عنت الموحدين بشكل ما لان القرآن سلك أصحابها في سلكهم في آيتي البقرة والمائدة ، او على الاقل عنت الذين انحرفوا عن دين العرب وتقاليدهم الشركية . ووروودها في القرآن دليل على انها من تعابير قبل البعثة ؛ ونعتقد بناء على ذلك انها لم تطلق على النبي (ص) وأصحابه لاول مرة ؛ لانها لو كانت كذلك لما كان من حكمة لذكر « الصابئين » للتعبير عن المسلمين في الآيات اولاً وقد عبر فيها عنهم تعبير « الذين آمنوا » ثانياً : اي انهم غير النبي (ص)

(١) لسان العرب مادة صبأ .

(٢) ج ١ ص ٣١١ .

(٣) التجريد ج ١ ص ٤٧ .

والمسلمين في التسمية القرآنية ولو كان العرب قد سموهم بها ، ولأن مما يكاد يكون يقيناً انه وجد من ترك عقائد وتقاليد العرب الشركية قبل البعثة ثالثاً .

— ٣ —

لهذا كله نرى من المعقول ان يكون الاسم قد استعمل في الآيات القرآنية للتعبير او الاشارة الى جماعة مافي بيئة النبي(ص) كانوا قبل البعثة يدينون بالتوحيد بشكل ما ، ويطلق عليهم هذا الاسم من حيث معناه اللغوي على اعتبار انهم صبأوا عن دين آبائهم واعتنقوا او اتبعوا ديناً أو عقيدة جديدة توحيدية ، ليست هي اليهودية ولا النصرانية ، وانه اطلق على النبي (ص) والمؤمنين به لأول عهدهم لأنه استعمال مألوف . وذكرهم في آيات مدنية في عداد اصحاب الأديان الاخرى يحمل على القول انه ظل منهم افراد على ما كانوا عليه ، ولم يتبعوا النبي (ص) . وقد ابدت الروايات ذلك بذكرها امية بن الصلت وكونه تنفس على النبي (ص) النبوة وكان يرشح نفسه لها .

اما اقوال المفسرين عنهم فاننا لا نراها تخرج عن حد التخمينات ، وتعددها وتموجها مؤيدان لذلك ؛ كذلك فاننا نرى ان الربط بين الصبة العراقيين اليوم والصابئين من عهد المأمون وبعده ، وبين التسمية القرآنية وهم وتجوزاو بالأحرى تلفيق مرتجل ومتأخر عن الاسلام بقرنين أو أكثر ؛ لان هذه الكلمة عربية الأصل والاشتقاق اولاً ، وكانت تستعمل في بيئة النبي (ص) وتطلق على الذين كانوا ينحرفون عن دين آبائهم من العرب ثانياً ، وانها اطلقت على النبي(ص) والمسلمين الأولين استمراراً لذلك ثالثاً ، وانه ليس في الكتب القديمة العربية ذكر طائفة معينة كان يطلق عليها هذا الاسم في عهد النبي (ص) لا في الجزيرة ولا في اطرافها رابعاً ، ولأن عبدة الكواكب في العراق لم يعرفوا في لغتهم بهذا الاسم او بما يقرب منه اشتقاقاً حتى يقال ان الكلمة محرفة او معربة كما هو شأن اليهودية والنصرانية خامساً ، ولان جواز اخذ الجزية من المجوس وعبدة الكواكب كان سنة نبوية وراشدية وكانت معروفة مألوفة ما ودونة في الكتب(١) قبل عهد المأمون

(١) اقرأ كتاب الاموال لابن سلام وكتاب الخراج لابي يوسف .

وذلك مما يضعف الرواية المسبوكة حول اسم الصابئين وتجويز اخذ الجزية منهم في زمن المأمون سادساً .

— ٤ —

فمن هم هؤلاء وما هي العقيدة الجديدة التي اعتنقوها بدلاً من العقائد والتقاليد التي كان عليها آباؤهم ؟

لقد ورد في كتب السيرة والتفسير(١) ذكر أفراد من عرب الحجاز كانوا ألموا بالكتب السماوية واستنارت عقولهم فأنفوا ان يظلوا يعبدون مايعبد آباؤهم ، ويشركون مع الله آلهة اخرى او يتخذون معبوداتهم شفعاء وأولياء ، ففارقوا ذلك كله ، ومنهم من اعتزم التطويف في الأرض للبحث عن الحنيفية ملة ابراهيم (ص) ومنهم من تنصر ومنهم من أخذ يتعبد على ملة ابراهيم (ص) او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان في مكة ومنهم من كان في يثرب ؛ وقد سمت هذه الكتب أسماء عدد غير قليل من هؤلاء مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وأمية بن الصلت ، وأبي قيس النجاري اليثربي ، وأبي الهيثم ابن التيهان اليثربي ، وأبي عامر الأوسي ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري .

وفي صحيح البخاري(٢) حديث مفاده أن السيدة خديجة (ر ض) جمعت بين النبي (ص) وبين ورقة ابن عمها وكان شيخاً طاعناً قد قرأ الكتب السماوية وتضلع باللغة العبرانية ، وطلبت منه ان يخبره بأمره ، وانه لما استوعبه بشره بأن هذا الذي أتاه هو الناموس الذي كان ينزل على النبي موسى(ص) وشجعه وثبته ووعده بالتأييد إن هو ظهر بدينه ونادى بدعوته .

وفي ابن هشام(٣) حديث طويل عن الأربعة الأولين ولاسيما عن زيد وكيف كان يعيب قومه ويفخر بأنه على دين ابراهيم (ص) ، وكيف انه أزمع الخروج في

---

(١) ابن هشام ج١ ص ٢١٥-٢٢٣ وج٢ ص ١٠٣ وص ١٧٧ - ١٧٨ وابن سعد ج١ ص٢٠٢ والرازي ج١ ص٣٦٩-٣٧٠ مثلاً .

(٢) التجريد ج ١ ص ٧

(٣) ج١ ص٢١٥-٢٢٣ .

طلب الحنيفية ملة ابراهيم وكيف كان عمه يؤذيه ويحاول أن يفتنه .

وفي أسد الغابة[1] صيغة دعاء وتوسل معزوة الى زيد هذا كان يناجي ربه بها فيقول : « لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم ، أنفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فاني جاثم ؛ وانه كان يسجد على راحته ، وأن النبي (ص) اجتمع اليه قبل البعثة وقال عنه انه يبعث أمة واحدة ، وهو والد سعيد بن زيد (رض) أحد العشرة المبشرين والسابقين الأولين وزوج فاطمة بنت الخطاب (رض) التي أسلمت مع زوجها قبل اخيها .

وكذلك ذكر ابن هشام[2] في سياق ذكر أبي عامر الأوسي أنه كان يدعى انه على الحنيفية دين ابراهيم في مقابلة بينه وبين النبي (ص) في المدينة بعد الهجرة .

— ٥ —

وفي القرآن آيات عديدة وردت فيها كلمتا حنيف وحنفاء ؛ ومن هذه الآيات ماهو مكي ومنها ماهو مدني ، ومنها ماجاء مع ذكر ابراهيم (ص) وملته ، ومنها ماجاء في وصف الدين الذي يدعو إليه النبي (ص) ، ومنها ماجاء مطلقاً ، وجميعها تحمل معنى التوحيد والموحدين كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... البقرة ١٣٥

٢ — ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ... آل عمران ٦٧-٦٨

٣ — قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... الأنعام ١٦١

٤ — قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن اكون من المؤمنين . وأن أقم

---

(١) ج ٢ ص ٢٣٧-٢٣٩ .

(٢) ج ٢ ص ١٧٨ .

وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ... يونس ١٠٤-١٠٥

٥ — ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... النحل ١٢٣

٦ — فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق ... الحج ٣٠-٣١

٧ — فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ... الروم ٣٠-٣١

ولقد قال المفسرون ان كلمة « حنيف » مشتقة من حنف وانها في معنى المستقيم كما قالوا وهو الأرجح انها مشتقة من حنف بمعنى مال وانحرف بدليل تسمية الأحنف لمن في رجله ميل ، وقالوا انها وجمعها حنفاء كانتا تطلقان على الذين كانوا يميلون عن دين الشرك ويوحدون الله قبل البعثة من العرب. وواضح أن هذا المعنى يتحد مع معنى صبأ والصابئين ؛ وكل مافي الأمر ان كلمتي حنيف وحنفاء وردتا في القرآن اكثر وفي جمل أشد ابرازاً لمعنى التوحيد وصفة الموحدين ، وإن لم ترد في معرض التعبير عن أصحاب نحلة دينية كما وردت كلمة الصابئين .

ونحن نعرف ان لبعض الباحثين أقوالاً حول كلمتي حنيف وحنفاء ؛ منها مايرمي الى التدليل على وجود طائفة او نحلة كانت تسمى بهذا الاسم قبل البعثة ، ومنها مايشكك في عروبة الكلمة بسبيل تقرير كون هذه النحلة ليست عربية وإنما هي دخيلة ايضاً ؛ وبعضهم حاول ان يجد بينها وبين بني حنيفة ومسيلمتهم الكذاب صلة ، وبعضهم تجاوز الحد فزعم ان معناها كان غامضاً في ذهن النبي (ص). والوجه الذي نعتقد صوابه هو ماقررناه آنفاً ، وان الكلمة عربية الاشتقاق ، وانها كانت مفهومة قبل البعثة على الوجه الذي ذكرناه ؛ وعلى كل حال فانها بورودها في القرآن اصبح لامحل للمماراة في انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزوله للدلالة على ماجاءت

تدل عليه في القرآن أي التوحيد وعدم الشرك مع الله . أما الأقوال الأخرى فهي أهون من ان تحمل التفنيد فيما نرى .

ومهما يكن من أمر فاننا نميل الى الظن بل الى الترجيح أن الصابئين والحنفاء شيء واحد او طبقة واحدة ، وانهم اولئك الذين تخلوا عن دين الآباء الشركي او الوثني من مستنيري عرب الحجاز ، ووحدوا الله ولم يستريحوا الى اليهودية والنصرانية أو لم يسترح بعضهم اليها لما رأوه فيها من مشاكل وانقسامات ، وفي اهلها من انحراف ومتناقضات ؛ ومنهم من عبد الله على ملة ابراهيم او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان يبحث عنها ليتعبد عليها .

— ٦ —

هذا ونلفت النظر الى آية الانعام (١٦٢) لنقول ان الآية توحي بأنه كان في نفس النبي (ص) قبل البعثة شيء من الحيرة في الملة او في ملة ابراهيم فهداه الله اليها. ولعل هذا ما أريد الاشارة اليه في آية سورة الضحى (٨) التي هي من أقدم السور نزولاً :

«ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى ... ٧-٨

وتوحي ايضاً هي وآية الضحى ان النبي (ص) كان أنف كذلك من السير على ماعليه الآباء من شرك ووثنية ولو انهما تطورا بعض التطور ؛ ولذلك لايكون من التجوز ان يقال ان النبي (ص) قبل بعثته كان من اولئك الافراد الذين تخلوا عن عقائد آبائهم ولم تسترح نفوسهم الى النصرانية واليهودية ، ورأوا ان الحق القويم في توحيد الله توحيداً لاشائبة فيه ولا تأويل وفي عبادته على ملة ابراهيم الحنيفية ، ولم يخلصوا مع ذلك من حيرة ما في أمر هذه الملة ، والذين كان يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء ؛ إلى أن اختاره الله من بينهم لما تحلى به من الميزات التي أهلته للاصطفاء والله اعلم حيث يجعل رسالته ؛ وأمره ان يهتف : قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . الانعام ١٦١

— ٧ —

كذلك نلفت النظر الى ورود ذكر ابراهيم (ص) وملته والاشادة بها بهذه

الحنفاوة في القرآن ، وكونها ضد الشرك ، والأصل الذي يرجع اليه ويسار عليه ، وإن ماجاء بعدها من يهودية ونصرانية قد انحرف عن الطريق الحق يوحي اولاً بأن ذكر ابراهيم (ص) وملته الحنيفية كان مما يتردد في أوساط العرب الحجازيين وبنوع خاص المستنيرين منهم قبل البعثة ، ويؤيد روايات السيرة التي أشرنا اليها عن الأفراد الذين كانوا يبحثون عن ملة ابراهيم (ص) وحاروا في امرها بعد ان نبذوا دين الآباء ويستأنس به ثانياً على ما كان في أذهان العرب الحجازيين او المستنيرين منهم من صورة مشرقة عن ملة ابراهيم (ص) واعتبارهم إياها الملة النقية التي لم تشبها ماشاب اليهودية والنصرانية من شوائب وانحرافات وخلاف ونزاع .

— ٨ —

ولقد كان هذا المعنى موضوع حجاج وجدال بين النبي (ص) وبين اليهود والنصارى[1] حيث احتوى القرآن ردوداً عليهم مسفهة مخطئة ، ومقررة تناقضهم وانحرافهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له

(١) جمعنا اليهود والنصارى لأن الآيات تذكرهما معاً مع ان سياقها يدل على ان الحجاج والجدل كان بين النبي (ص) واليهود فقط مما يسوغ القول ان ذكر النصارى جاء على سبيل الاستطراد والتعميم وانهم لم يكونوا طرفاً في المناظرة والجدل وإن كان من المحتمل أن يكون مما قالوه أو مما هو منطبق على واقع حالهم .

مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ... البقرة ١٣٠-١٤٠

٢ — «ياأهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. هاأنتم هؤلاء حاججتم في مالكم به علم فلم تحاجون في مالبس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ... آل عمران ٦٥-٦٨

وليس من المستبعد ان يكون مثل هذا الحجاج والجدال قد دار بين اليهود وبين مستنيري العرب الذين كانوا على ملة ابراهيم او كانوا ينشدونها ممن ذكرتهم الروايات ومن لم نذكرهم قبل البعثة ايضاً ؛ حيث كان اليهود يزهون ويفخرون على العرب ، ويدعون انهم أولى بابراهيم (ص) وانهم على ملته ، وحيث كان يرى اولئك المستنيرون في اليهود والنصارى شقاقاً وخلافاً وانحرافاً لا يأخذون بأقوالهم ولا يتابعونهم في عقائدهم ، ويظلون ينشدون ملة ابراهيم (ص) في غير الديانتين اليهودية والنصرانية ؛ بل نحن نرجح ذلك لأن اليهود كانوا من مراجع العرب الدينية كما اشرنا الى ذلك غير مرة ؛ ولا بد من ان يكون اولئك المستنيرون الذين استسخفوا ما كان عليه قومهم قد اتصلوا ببعض علماء اليهود وأحبارهم للاستطلاع والاقتباس وتبين حقيقة ملة ابراهيم (ص) وناقشوهم في دعوى أنهم عليها وأوردوا عليهم ماهم فيه من انحراف وضلال ؛ ومن المحتمل ان لايكون هذا الاتصال والنقاش والحجاج قد اقتصر على اليهود ؛ وان يكون قد شمل النصارى وقد كان بينهم من هو مظنة علم وتعليم بحيث نسب الكفار للنبي (ص) التعلم منهم والاستعانة بهم على ماتدل على آيتا النحل والفرقان (١٠٣ و ٤) مما أشرنا اليه في مناسبة سابقة . ولقد قلنا

سابقاً انه كان من عرب الحجاز من اعتنق اليهودية والنصرانية فمن المحتمل جداً ان يكون ذلك نتيجة من نتائج الاتصال والنقاش والحجاج ، بل وفيه دليل على وقوع هذا الاتصال والنقاش والحجاج في صدد ملة ابراهيم (ص) ونشدانها بعد الأنفة من من العقائد والتقاليد التي كان عليها الآباء .

ونود ان ننبه الى آية آل عمران (٦٨) لنقول ان هذه الآية قد أشارت الى ثلاث طبقات وهم « الذين اتبعوا ابراهيم » و « هـذا النبي » و « الذين آمنوا » ؛ ونرجح ان المقصود بالذين اتبعوه هم اولئك الذين نبذوا تقاليد الجاهلية وعقائدها ووحدوا الله على ملة ابراهيم (ص) الحنيفية قبل البعثة ، وأن الاشارة اليهم قبل ذكر النبي (ص) هي للترتيب الزمني، أو على الاقل انهم من المقصودين بالتعبير ؛ بل نكاد نرى هذا يقيناً من مضمون الآية ؛ وليس من حكمة لقصد النبي (ص) و لذين آمنوا به في تعبير « الذين اتبعوه » لانهم خصوا بالذكر في الآية .

— ٩ —

ولعل مما يستأنس به على ما كان من حفاوة العرب بملة ابراهيم (ص) وتداولهم اخبار الصلة بينها وبين تقاليدهم ، مما حدا بأولئك المستنيرين الى الاهتمام للبحث عن ملة ابراهيم والتمرد على فهمها على الوجه الذي عليه قومهم شركاً ووثنية وسخفاً، وان يتبينوها توحيداً حنيفاً لاشرك فيه تكرر حكاية القرآن لمواقف ابراهيم (ص) مع ابيه وقومه وحجاجه لهم ، ودعائه بتجنيبه وبنيه الأصنام ، وحملته على الأوثان وتنديده بها، واعلانه اسلامه وجهه لله — وكل هذا مما له صلة تذكير ووعظ بالعرب وحالتهم الدينية ؛ حيث وردت في سور عديدة منها ما نقلناه في مناسبة سابقة وهي آيات سورة ابراهيم (٣٥ — ٤١) وفي مايلي بعضها ، (١) .

١ — وإذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُرِي ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين.

(١) اكتفينا بما اوردنا ، ونحيل القارىء الى آيات سور مريم ٤١ — ٤٨ والشعراء ٦٩ — ٨٩ والعنكبوت ١٦ — ٢٧ والصافات ٧٣ — ٩٩ والزخرف ٢٦ — ٢٨ والممتحنة ٤ — ٦ والتوبة ١١٤ ايضاً .

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ماتشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء(١) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو الا ذكرى للعالمين ... ٧٤-٩٠ الانعام

٢ — ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم .

(١) هؤلاء هنا أشارة الى العرب الذين كفروا بالرسالة المحمدية .

قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون .قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ... الانبياء ٥١-٧١

فهذه المواقف التي ذكرتها المجموعات القرآنية التي نقلنا بعضها وأشرنا الى بعضها ليس مما ورد في التوراة في سياق حياة ابراهيم (ص) كما ان جلها وارد في سور مكية ، وفي سياق يتضمن التنديد بالعرب على شركهم وعدم ارعوائهم ، وما ورد منها في السور المدنية ورد كذلك في صدد التنديد بالعرب ومعطوف على ماجاء في السور المكية وليس في صدد التنديد باليهود ؛ لان ماورد في هذا الصدد غير هذه المجموعات ، وجميعه مدني وقد نقلناه في مناسبات سابقة ؛ والتنديد مع التمثيل بمواقف سابقة إنما يكون مستحكماً اذا كانت هذه المواقف مما يعرفه السامعون ؛ ولهذا فنحن نعتقد ان العرب السامعين المقصودين بالتنديد والتذكير كانوا يتناقلون اخبار ابراهيم (ص) ومواقفه سواء ماورد منها في التوراة ومالم يرد جيلاً بعد جيل مع تناقلهم صلتهم بالابوة ، وصلة تقاليدهم الدينية به كذلك ، مما تلهم الآيات الكثيرة صحة استنتاجه بسبب اسلوبها المأنوس والحفي اذا مالأنعم النظر فيها .

ومع أن من المحتمل أن يكون أصل هذه الفكرة قد تسرب اليهم من اليهود الموحدين المنتسبين بالأبوة إلى ابراهيم (ص) لا سيما والتوراة هي اول وأقدم من ذكر ابراهيم (ص) فأنهم رأوا في اليهود والنصارى انحرافاً عنها كما رأوه في بني قومهم ؛ وهكذا كان العرب الحجازيون عامة على فكرة ضالة من تقاليد ابراهيم وملته ، ثم تميزت منهم طبقة رجعت أو حاولت أن ترجع الى ملة ابراهيم الحنيفية الصحيحة الخالصة من الشوائب التي ليست هي اليهودية ولا النصرانية ، وانما هي الاسلام لله وعبادته وحده حنفاء غير مشركين به ، فكانت هذه هي الصابئون او الحنفاء .

— ١٠ —

ونميل الى الترجيح بان هؤلاء الصائبين او الحنفاء او المتعبدين على ملة إبراهيم (ص) لم يكونوا عدداً قليلاً ؛ فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن فئة خاصة ، وأشار اليهم بهذه الحفاوة ، وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الاديان المنقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل ؛ ووصول اسماء نحو عشرة أشخاص الينا في كتب كتبت بعد قرن ونصف او قرنين او اكثر عن روايات ظلت تتناقلها الافواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التي نرجحها . هذا اولا ، وثانياً ان ظهور هؤلاء في غير مكان واحد وربما في غير وقت واحد يحمل معنى ظهور فكرة جديدة أخذت تقوى في ادمغة المستنيرين من العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ، وهي فكرة الاتجاه إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد في أمر العقيدة والتقاليد الدينية ؛ وبكلمة أخرى إن هذا يمكن أن يعد خطوة أخرى عظيمة القيمة من خطوات التطور الديني والفكري التي ادّت اليها الحركة العقلية والدينية التي ظهرت قبل البعثة النبوية ثم نمت وقويت قبيلها.

— ١١ —

وهكذا تكون الحركة الدينية قد تدرجت عند العرب وفي بيئة النبي (ص) من وثنية مادية وطبيعة وقوى طبيعية ، الى وثنية غير مادية روحية وخفية ، إلى فكرة الله والاعتراف به الها اعظم خالق الاكوان ومدبرها مع أشراك إلهة اخرى معه ماديين وغير ماديين ، إلى انقلاب هؤلاء الشركاء إلى شفعاء لدى الله ووسطاء ، واعتبار الاوثان المادية رموزاً ، ثم إلى الاتجاه إلى الله وحده في شيء من الحيرة وارتقاب نذير او نبي ينقذ من هذه الحيرة ، ويهدى الى الطريق القويم ، ويكون به العرب أهدى من الامم الأخرى التي كانت في خلاف ونزاع ، وشقاق وجدال ، قد أنقسموا فيما بينهم ، واخذوا يسفهون بعضهم بعضاً ويقاتلون بعضهم بعضاً . حتى اذا جاء الوقت المناسب في علم الله اختص الله سبحانه برسالته من بين تلك الطبقة التي اتجهت الى الله وحده وارادت الرجوع إلى ملة ابراهيم (ص) الحنيفية النقية ، واستسخفت ما كان عليه قومها من ضلال محمداً بن عبد الله العربي الحجازى المكي

القرشي عليه الصلاة والسلام ، فقام بالدعوة إلى دين قويم بيّن الحدود ، واضح الاعلام سواء من حيث العقيدة الأصلية وهي التوحيد والايمان بالله العظيم المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن كل الشوائب رب العالمين، دون اختصاص كما زعم اليهود ودون تأويل كما زعم النصارى ، او من حيث الواجبات التعبدية والايمانية، أو من حيث الاسس الاجتماعية والاخلاقية التي من شأنها ان تسمو بالانسان والانسانية إلى الكمال القائم على الحق والعدل والبر والاحسان والكرامة والعزة مؤتمراً بقول الله.

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ... الروم ٣٠

معلناً بلسان القرآن أن الله قد هداه إلى ملة ابراهيم الحقيقية :

« قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ... الأنعام ١٦١

موجهاً الخطاب إلى المسلمين العرب بلسان القرآن :

«يا إيها الذين آمنو اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ... الحج ٧٧-٧٨

- ١٢ -

وليس من مانع من أن تكون هذه المظاهر قد اجتمعت في عهد واحد حيث كان التفاوت قائماً لاشك فيه في العقول والذكاء والمعارف والتجارب والأفق والنشاط والاتصال ؛ فكما انه يوجد في كل بيئة العاقل والاحمق والذكي والغبي ، والعالم والجاهل والنشيط والبليد ؛ والجوال والمنعزل ، والعميق والساذج والطيب والخبيث ، وكل يسبح في الفلك الذي تهيئه له وسائله ومدى عقله ونشاطه وقابليته في أمور الدين والدنيا ؛ فكذلك من الطبيعي أن يكون قد وجد في عصر النبي (ص) وبيئته الوثني الغبي الذي لا يصل إدراكه إلى أبعد من عبادة الحجر والشجر ، والوثني الذكي الذي يرتفع من السفليات إلى العلويات فيعبد قوى الطبيعة ؛ ثم يعبد

الملائكة والجان ، والمشرك الغبي الذي يتخذ لكل مطلب من مطالبه صنماً باور ، والمشرك الذكي الذي يدرك عظمة الكون ويتوصل إلى وجوب وجود خالق له ، ويتخذ إلى جانب الاعتراف به شركاء يحسبهم ، ويتجه اليهم مشاهدة ، والمشرك الاذكي الذي يرتفع عن الشرك الاعلى إلى الشرك التوسلي فيجعل الشركاء شفعاء ، ويعبدهم ليقربوه الى الله زلفى ؛ والعاقل المكابر الذي يدور مع مصلحته الدنيوية ، ويسير وراء أنانيته وكبريائه وتقاليده ، والعاقل المخلص الذي يرى كل ذلك سخفاً فينفض يده من الشركاء والشفعاء ، ويتغلب على الانانية والكبرياء وعصبية التقاليد ، ويتجه إلى الله وحده يعبده على غير حدود معينة لانه ليس لديه من يهديه إلى هذه الحدود ، وليس له أن يخترع لنفسه من نفسه مثل هذا الحدود ؛ لا سيما وقد كان في تلك البيئة والعصر البدوي الموغل في البادية الذي يعيش في عزلة شديدة ، والبدوي المستأنس المتصل قليلا او كثيراً بالمدن ، والحضري الذي يعيش في شيء من العزلة والحضري الذى كانت عزلته أخف وأقل ؛ ثم وقد كان فيها الذي قرأ وكتب واطلع على ما وصلت اليه يداه من كتب ، واحتك بمن كان اشد اتصالاً منه بالاديان والكتب السماوية ، والرحالة الذي جاب الآفاق ورأى العالم واحتك بمن كان اكثر منه تقدماً في الحضارة المادية والعقلية ، وتيسرت له فرص الاقتباس والتقاليد ، ثم هضم ما اقتبسه وقلده وتبناه وميز بين غثه وسمينه . وخبيثه وطيبه ، وفاسده وصحيحه .

وإذا كان من شيء نزيده على هذا الاطار التي احتوى هذه الصور العديدة التي نرجو أن تكون عبرت تعبيراً صادقاً أو مقارباً لما كانت عليه الحالة في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة فهو أنه كان مع ذلك هناك فكرتان في أفق هذه الصور تربطانها ببعضها بعض الربط ، وتجعلان فيها شيئاً من وحدة الاتجاه ، وهما فكرة « الله » وفكرة الحج والاشهر الحرام وتقاليدهما اللتان كان ينتظم فيهما اكثر العرب حضراً وبدواً كما بيناه سابقاً ، واللتان كانتا مظهرين بارزين لتطور عربي خطير في الحياة الدينية والاجتماعية .

الفصل السابع

في اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما
واثرهما في عصر النبي (ص) وبيئته

متناول الفصل ـ مدى انتشار اليهودية في عرب الحجاز ـ اليهودية في اليمن اثر اليهود واليهودية في العرب ـ حجاج اليهود في ابراهيم (ص) وملته والكعبة والقبلة ومداه ـ حجاجهم في المحرمات الطعامية ومداه ـ مدى ما جاء في القرآن في صدد القضاء والشريعة اليهوديه ـ عقيدة بنوة العزير ـ عقيدة اليهود في مريم والمسيح ـ صفات النبي (ص) عند اليهود ـ مخالفات اليهود للشريعة وتقصير علمائهم واحبارهم ـ اقتباسات ومعارف العرب من اليهود ـ انتشار النصرانية في عرب الحجاز ـ في عرب الشام والعراق واليمن ـ اثر النصرانية في الحجاز ـ عقيدة الوهية المسيح وامه ـ عقيدة التثليث ـ معجزة ولادة عيسى ـ حكمة حكاية معجزة ولادة يحيى ـ عقيدة الصلب ـ تعدد فرق النصارى وتطابق بعض الفرق مع التقريرات القرآنية ـ استغلال الرهبان لطوائفهم ـ عدم رعاية الرهبنة ـ بحث في تعبير الروح القدس ـ اقتباسات العرب ومعارفهم من النصارى ـ مفهوم التوراة والأنجيل قبل البعثة ـ ترجمة اسفار التوراة والأنجيل للعربية .

— ١ —

في الفصل الثالث من الباب الاول بحثنا عن اليهود والنصارى الذين كانوا في الحجاز ، واستعرضنا كثيراً من الآيات الواردة في صددهم . ودرسنا ما كان لهم من مركز وما كانت عليه اخلاقهم ، وما كان لهم من تأثير في أهل بيئة النبي (ص) وعصره . وكذلك أشرنا في فصول أخرى الى ما كان من تأثيرهم في معارف العرب وافكارهم الدينية وغير الدينية ، وما يمكن ان يكون قد تسرب الى العرب منهم من عادات وتقاليد ومقتبسات وافكار دينية وغير دينية ايضاً .

ونريد في هذا الفصل ان نكمل اقتباس السورة القرآنية عن اليهودية والنصرانية، ونشير الى مدى انتشارهما في عصر النبي (ص) وبيئته اولا ، والى ما كان يدور من حجاج ونقاش حول الأفكار والعقائد اليهودية والنصرانية ، وما يمكن ان يعرف من ذلك من مدى ما كان لها من اثر في اذهان العرب وافكارهم ومعارفهم ثانياً ، ونستعرض الآيات التي لم نستعرضها والتي تساعد على اكمال الاقتباس وندرس دلالاتها ثالثاً .

— ٢ —

ولقد قررنا في الباب الاول ان وجود اليهود بكثرة في الحجاز وبتعبير ادق في يثرب ومنطقتها يرجع الى مدة غير قصيرة قبل البعثة استدلالا مما كان لهم من تمكن اجتماعي واقتصادي وزراعي وقرى وحصون وقوة، ومن اندماج وثيق بالحياة العربية نوهت به الآيات القرآنية تنويها غير يسير ، كما قررنا ان خطاب القرآن عنهم ببني اسرائيل يدل على انهم كانوا جوالي اجنبية نازحة .

ونقول الآن انه ليس في القرآن شيء صريح عن وجود عرب يهود ، أو بكلمة أخرى عن انتشار اليهودية بين عرب الحجاز . وكل ما هناك آية تذكر ان من اليهود اميين :

«ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم ألا يظنون البقرة ٧٨

وقد كان تعبير الأميين يطلق على غير الاسرائيليين الذين يعدون أنفسهم شعب الله المختار كما كان يطلق على العرب تبعاً لذلك كما تلهم الآيات التالية :

١ — ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ... آل عمران ٧٥

٢ — هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ... الجمعة ٢

فهل يمكن ان يقال إن الأميين في آية البقرة قد عنى بها فريق متهود من العرب ، او عنى بها الفريق الجاهل من يهود بني اسرائيل حيث تحتمل الكلمة هذا المعنى ؟ ان سياق الآية اكثر الهاماً لهذا المعنى من ذاك كما يلمس منه لا سيما

والسياق في صدد اليهود الاسرائيليين ، ومع هذا ليس بعيداً جـــداً ان يكون قد عنى به فريق متهود من العرب الذين لم يكونوا يعرفون لغة الكتب الدينية العبرانية ، او لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة ، او الذين يغلب عليهم الجهل .

واذا تجاوزنا نطاق القرآن فان هناك روايات تذكر ان بعض عرب الحجاز وخاصة في يثرب قد تهودوا ، وان صلات النسب قد توطدت بين الاسرائيليين والعرب فكان من العرب من له خؤولة فيهم ؛ ومعلوم ان النبي (ص) قد تزوج يهودية من خيبر ؛ وان القرآن قد احل للمسلمين التزوج بالكتابيات اطلاقاً ؛ وقد يكون هذا عودة الى ما كان او امضاء لما كان ؛ كما ان من المحتمل أن تكون صلات النسب قد قامت بين اناس جمعت بينهم وحدة الدين اليهودي .

وعلى كل حال فمن السائغ أن يقال ان اليهودية قد انتشرت بعض الشيء في عرب الحجاز ؛ غير ان من الراجح جداً ان يكون هذا افرادياً وضيق النطاق ، ونكاد على مثل اليقين استلهاماً من خطاب الآيات القرآنية بأنه لم يكن في الحجاز قبائل عربية متهودة ، ونرى فيما ذكره بعض المؤلفين القديمين والحديثين بسبيل تقرير ذلك تجوزاً ومجازفة لا تستند الى راهن صحيح ؛ فالقرآن خاطب اليهود المعاصرين في الآيات المدنية ببني اسرائيل وربط بين اخلاقهم واطوارهم وبين اخلاق واطوار بني اسرائيل القدماء من لدن موسى (ص) وما بعد ؛ والذين نكل بهم النبي (ص) واجلاهم كانوا من الجوالي الاسرائيلية حسب ما تلهم نصوص القرآن ، وكانوا يعيشون في قرى ومحلات خاصة بهم ؛ ولم تذكر اية رواية مهما كانت حسب اطلاعنا انه كان يهود متكتلون غير يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع في يثرب ويهود خيبر ووادي القرى والقرى القليلة الصغيرة الاخرى على طريق الشام ، والاحتكاك قد كان بين النبي (ص) وبين الاولين وهم الذين كان يوجه اليهم التنديد والخطاب القرآني ببني اسرائيل ، وكانت صلات الدم والعادات واللغة والعصبية وثيقة بينهم وبين الآخرين .

هذا في الحجاز ، ولقد ذكر المفسرون ورواة السيرة في صدد تفسير آيات سورة البروج :

«قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ... ٤-٨

ان احباراً من اليهود ذهبوا من يثرب الى اليمن ، وتمكنوا من تهويد ملكها ذي نواس ، وحمله أهله مملكته على اعتناق اليهودية ، وانه كان في المملكة نصارى وقفوا موقفاً عنيداً من هذه الحركة فأغرى اليهود بهم الملك ، فحد أخدوداً طويلا او قد فيه النار وأمر باحراق كل نصراني لا يعتنق اليهودية ، وأن غزوة الاحباش لليمن واستيلاءهم عليها انما كان باعثها المباشر اضطهاد نصارى اليمن .

فاذا صح هذا ـ لان الرواية في مداها تحتمل الكلام في مضامينها كما ان تفسير الآيات بها تحتمل الكلام ايضا (١) ـ فيكون اليهود قد نجحوا في نشر دينهم بمقياس واسع في اليمن ، مع القيد ثانية انه ليس في القرآن ما يدل على هذا صراحة أو ضمناً .

ونبه على ان كتب السيرة ، التاريخ القديمة لم تذكر انه أجلي يهود عن اليمن في زمن عمر بن الخطاب (رض) حينما أجلى النصارى عنها تنفيذاً لوصية النبي (ص) بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان ؛ (٢) بل ان ابا عبيدة (رض) روى ان آخر كلام قاله رسول الله (ص) (٣) هو وصيته أن أخرجوا اليهود من الحجاز واخرجوا نصارى نجران اليمن من جزيرة العرب .

وهذا يدل على انه لم يكن في اليمن في اواخر عهد النبي (ص) يهود وانما كان منهم بقية في الحجاز .

والظاهر ان الاحباش بعد ان غزوا اليمن وانتصروا عليها وحكموها مدة غير قصيرة وكانوا نصارى ، وكان العداء مستحكما بين اليهودية والنصرانية ، قد شردوا

(١) اقرأ تفسيرنا للآيات في التفسير القويم

(٢) الخازن . ج ٢ ص ٢١٢ وكتاب الأموال (ص) ٩٨

(٣) كتاب الأموال ص ٩٩

اليهود عن اليمن ـ اذا كانت رواية وجود يهود او اعتناق العرب اليهودية صحيحة، او حملوهم على الارتداد عن اليهودية بالترغيب والترهيب ، وانه لم تعد لليهود قائمة فيها ،او على الاقل لم يبق لهم كيان محسوس فيها كالذي يمكن فرض وجوده قبل غزوتهم ، ثم ما لبثت هذه البقية غير المحسوسة أن انغمرت هي الأخرى في الاسلام وانقضى امرها .

ونحن نعرف انه يوجد اليوم في اليمن طائفة من اليهود ، وانهم يزعمون انهم احفاد اليهود من قبل البعثة . ولكن الذي نرجحه بل نعتقده ان الزعم غير صحيح وانما هو من الجهل والتبجح ، وانهم طرأوا على اليمن كما طرأوا على غيرها من بلاد الشرق من الاندلس بعد انهيار الدولة العربية فيها .

واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لليهودية في اليمن فمن باب اولى ان يكون كذلك في انحاء الجزيرة العربية الاخرى،او بالاحرى ان لا يكون جوال يهودية وان لا يكون يهودية عربية فيها .

— ٤ —

وعدم انتشار الديانة اليهودية في بيئة النبي (ص) قبل البعثة بنطاق واسع لا يعني أن العرب كانوا في عزلة عن تأثيرها ، فنحن نعتقد انهم تأثروا بها الى حد كبير، سواء في تطور الفكرة الدينية وخاصة في فكرة « الله » ،وسواء في تقاليد انتساب العرب بالابوة الى اسماعيل وابراهيم(ص) وما تبعها من تقاليد متنوعة اخرى،وسواء في ما كان عندهم من معارف ومعلومات وأفكار لها صبغة دينية مثل انباء الانبياء والرسل (ص) وقصصهم مع امهم ، واخبار الملائكة وصلتهم بالله وقصة آدم وابليس ومثل الوقوف على ما كان لهم من آراء ومذاهب ، وما كان عندهم من كتب ومناصب دينية ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وما كان في كتبهم من صفات وتقاليدهم من بشارات ببعثة نبي من العرب ،وسواء في الطقوس والعادات المتنوعة(١)

(١) في تفسير الخازن . ج ١ ص ١٠٣ رواية عن ابن عباس ان اهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ويرون لهم فضلا عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم .

كالختان والتطهر من الجنابة واعتزال النساء في المحيض وفكرة اجتماعات يوم العروبة ـ وهو يوم الجمعة ـ وغير ذلك مما اشرنا الى بعضه في الفصول السابقة في مناسبات متعددة ؛ هذا بالاضافة الى ما كان لهم من المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي وما كان لهم بسبب ذلك من أثر في حياة العرب مما اشرنا اليه في ما سبق ايضاً .

— ٥ —

وفي القرآن آيات متصلة باليهود جاءت في صدد ما كان يقع بين النبي (ص) وبينهم من حجاج وجدل ، ويمكن ان تلهم اموراً عديدة عما كان عليه الامر قبل البعثة .

منها ما جاء في صدد الحجاج في ابراهيم (ص) وملته ، ودعوى اليهود بأولويتهم به وبكون ملتهم هي ملته ، وكذلك ما جاء في صدد الكعبة وقدمها ونضاها وعلاقة ابراهيم واسماعيل بها تنديداً بمواقف دسهم وانكارهم ؛ وهي ايات البقرة ١٢٥ — ١٤٠ التي نقلنا بعضها اى الآيات ١٣٠ — ١٤٠ في الفصل السابق وبعضها اي الآيات ١٢٠ — ١٣١ في فصل الحج ، وآيات آل عمران ٦٥ — ٦٨ التي نقلناها كذلك في الفصل السابق ؛ ومنها آيات آل عمران ٩٦ — ٩٧ وآيات سورة الحج ٢٦ — ٢٧ التي نقلناها في فصل الحج وآية سورة الحج التي نقلناها في الفصل السابق .

فهذه الآيات تقرر وتذكر :

١ — صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة وبنائها وبالبلد الحرام ودعوتهما لله بان يجعله آمنا ميسر الرزق .

٢ — أوّلية الكعبة كبيت الله وفرض حجه من استطاع اليه سبيلاً من الناس وصلة ابراهيم (ص) بأولية الحج ومناسكه .

٣ — صلة ابراهيم وإسماعيل (ص) بالعرب وابوتهما لهم ، ودعوتهما الله بان يجعل ذريتهما ـ والقرينة في آيات البقرة ١٢٨ — ١٢٩ تصرف المعنى الى العرب ـ مسلمين وان يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

٤ — وصية ابراهيم ويعقوب (ص) لبنيهم باقامة الدين لله وحده والاسلام له ،

وان هذا هو ما كان عليه ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وموسى وعيسى النبيون الآخرون (ص).

٥ — بطلان دعوى اليهود بأن ابراهيم (ص) كان على ملتهم ، وتقرير انه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وانما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وان أولى الناس به ليسوا من ينتسبون اليه بالبنوّة اطلاقاً وانما الذين اتبعوه ، وان عهد الله لابراهيم (ص) لا يناله الظالمون المنحرفون من ذريته وبالتالي ان بنوّة اليهود لابراهيم (ص) لا تبرر لهم دعوى الأولوية به لانهم انحرفوا عن ملته .

ومن سياق آيات البقرة وآل عمران يستدل على ان هذه التقريرات فيها انما كانت بسبيل الرد على دعاوي اليهود وحجاجهم وجدلهم ومكابرتهم .

والذي نرجحه أن دعاوي اليهود هذه كانت تصدر منهم قبل البعثة ايضاً على سبيل الزهو والافتخار على العرب من جهة وتوطيداً لمركزهم الممتاز بينهم من جهة ثانية ، وانهم حينما رأوا النبي (ص) قد أخذ يشتد امره بعد الهجرة شعروا بالخطر يحدق بهذا المركز فعمدوا إلى الحجاج واللجاج والنقاش ، ونقض دعواهم التي كانوا يستفتحون بها على العرب مما نددت بهم آيات البقرة ٨٧ — ٨٩ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، ومما يؤيد ما ذكرناه من صدور هذه الدعاوى منهم قبل البعثة ؛ فكانت هذه الردود والتقريرات القرآنية حاسمة في وضع الأمر في نصابه وسد الباب أمامهم . وفي هذا كله صور تمت إلى اليهود واليهودية بسبب كما هو ظاهر .

كذلك نرجح أنه كان يقع بين العرب واليهود نقاش حول ابوة ابراهيم (ص) للعرب واليهود ، وحول صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة والحج وتقاليده ، وأن اليهود كانوا يزهون على العرب بأن الانبياء جميعهم إنما كانوا من نسل ابيهم اسحاق (ص) ، وانهم استمروا بعد الهجرة في زهوهم وجدلهم هذا فكانت هذه التقريرات القرآنية ايضاً في تثبيت ابوة ابراهيم واسماعيل (ص) للعرب ، وفي تثبيت صلتها بالكعبة وبنائها وقدمها وفضلها ، وفي تثبيت صلة ابراهيم (ص) بالحج ومناسكه مما كان يقول به العرب ، ويتناقلونه جيلا بعد جيل ، ثم في تثبيت دعوة ابراهيم واسماعيل (ص)

بان يبعث الله من العرب نبياً يعلمهم الكتاب والحكمة، واستجابة الله لدعوتها وارساله محمداً (ص) . ولقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

«هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ... ٢ — ٥

وفيها تثبيت باسلوب آخر لبعثة الرسول الامي العربي ، وتقرير بعدم الحرج على الله في إيتائه فضله لمن يشاء ، وتنديد باليهود لأنهم يتجاهلون ما في التوراة من بشارات ومباديء . مما يدل على ان اليهود استمروا في دعواهم بأن النبوات محصورة فيهم ، وانكروا نبوة النبي الامي العربي (ص) مع ما في هذا من مكابرة ونقض لما كانوا يقولون ويستفتحون به على العرب وتجاهل لما عرفوه . وكل هذا متصل بما نحن بسبيل تقريره كما هو ظاهر .

ونحب ان نلفت النظر الى أن آيات آل عمران ٩٦ — ٩٧ لنقول اننا نرجح استلهاما من سياقها ومضمونها انها نزلت في صدد حجاج اليهود حول القبلة ، واتجاه النبي (ص) الى الكعبة بعد اتجاهه إلى المسجد الاقصى . فلقد أهم تبديل القبلة اليهود كثيراً ، ورأوا فيه خطراً آخر على مركزهم ، وتقويضاً لزهوهم ودعاويهم ، فجادلوا به وشككوا ودسوا وساءموا كما جاء أشارات الى ذلك في سلسلة من الآيات في سورة البقرة ، واخذوا يفاضلون بين الكعبة والمسجد الاقصى فنزلت آيات آل عمران هذه لتقرر افضلية الكعبة واوليتها واولويتها .

اما السلسلة المذكورة فهذا ماله صلة بحجاج اليهود منها :

«سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صرط مستقيم . وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله

وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم . قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. البقرة ١٤٢–١٤٧

ولقد سبقت هذه السلسلة بالآيات ١٢٥ — ١٤٠ التي نعتقد انها متصلة بها ، وانها نزلت كمقدمة تثبيتية لفضل الكعبة وصلتها بابراهيم واسماعيل (ص) .

وإذا كانت هذه الآيات جميعها تشير إلى ما كان من اليهود من موقف الدس والاعتراض والتشكيك في صدد تحويل القبلة فاننا نرجح ان يكون قد وقع بينهم وبين العرب قبل البعثة جدل وحجاج ومفاضلة بين الكعبة والمسجد الاقصى ، لأن العرب كانوا يعتبرون الكعبة بيت الله العتيق ، وكانت مكانتها عندهم عظيمة ؛ ومن تمام زهو اليهود أن يفخروا بان مسجدهم في بيت المقدس أفضل من كعبة العرب .

ومما هو جدير بلفت النظر في صدد البحث الذي نحن فيه فقرتان في سلسلة الآيات ١٤٢ – ١٤٧ وهما :

١ — وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ...

٢ — والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

فهاتان الفقرتان تلهمان بقوة أن اليهود لم يكونوا في غفلة عن شأن الكعبة وفضلها ، وانهم كانوا يعرفون ويعترفون بذلك فاستحقوا التنديد القرآني الشديد حينما ناقضوا انفسهم ، وانكروا ما عرفوا في ظرف تبديل سمت القبلة . والراجح ان هذه المعرفة والاعتراف قد كان منهم قبل الهجرة بل وقبل البعثة ، لان هذا التبديل قد وقع في اوائل الهجرة ، وان العرب المسلمين والمحتكين باليهود منهم قد عرفوا هذا وسمعوه منهم . وواضح ان هذا ينطوي على ما كان لليهودية من اثر في

تقاليد العرب الدينية او تدعيمها وتثبيتهم فيها . وليس من تناقض بين اعترافهم بشأن الكعبة وفضلها مع تفضيلهم المسجد الاقصى على سبيل الزهو كما هو واضح .

— ٦ —

ومنها ما جاء في صدد ما وقع بين النبي (ص) وبين اليهود من جدل في المحرمات الطعامية، فقد ورد في سورة آل عمران الآيات التالية :

«كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل إلا حرم ما اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون ... آل عمران ٩٣ — ٩٤

والذي يستلهم من هذه الآيات ان اليهود كانوا يدعون ان ما حرم عليهم قد حرم من قبله على اسرائيل — وهذا الاسم كان يطلق على يعقوب (ص) — وان هذا التحريم يرجع الى ملة ابراهيم (ص) ، وانه وقع بين النبي (ص) وبينهم مناظرة في هذه الامر فنزلت الآيات لبيان الحقيقة، وقد تحدتهم بالاتيان بالتوراة وتلاوتها في مجلس المناظرة إذا كانوا صادقين فى دعواهم ؛ مما يدل على انهم كانوا في موقفهم مكابرين ومغالطين .

ولقد احتوت سورتا الانعام والنحل المكيتان آيات في صدد المحرمات الطعامية، وجاءت آيات الانعام عقب سلسلة التنديد بمشركي العرب ونقاشهم بسبب تحريمهم وتحليلهم الكيفي ، وجاءت آيات النحل في سياق أمر المسلمين بعدم التحريم والتحليل الكيفي واتباع ما حرم الله والاكل مما رزقهم حلالاً طيباً كما ترى :

١ — قل لا اجد فيما أوحي إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة او دماً مسفوحاً او لحم خنزير فانه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون (١) ... الانعام ١٤٥ — ١٤٦

(١) السلسلة التي تقدمت هذه الآيات هي الآيات ١٣٥ — ١٤٤ وقد نقلناها في الباب الاول .

٢ ــ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون. انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم . ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبـــل وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ... النحل ١١٤ــ١٤٨

ومعلوم ان التوراة قد حرمت اكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وذوات الاظفار وغير ذلك ، فلما نددت آيات الانعام ١٣٥ ــ ١٤٤ بمشركي العرب على تحريمهم وتحليلهم الكيفيين وصبغها بصبغة دينية احتجوا على ما تلهمه آيات الانعام بما كان عند اليهود من تحليل وتحريم فردت عليهم الآيات ١٤٥ ــ ١٤٦ ان المحرم العام هو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وان ما حرم على اليهود دون ذلك انما حرم عقاباً على بغيهم وليس لكونه رجساً او فسقاً . ويظهر أن هذا الموضوع ثار ثانية بين المسلمين في العهد المكي نتيجة لاعتراض المشتركين أو بسائق ما كان مستقراً في العرب من تقاليد قديمة فاقتضت الحكمة نزول آيات النحل تؤكد أنه ليس من محرم الا المحرمات الاربعة التي هي رجس وفسق، وان ما عداها مما حرم على اليهود إنما كان بسبب ظلمهم وليس هو من هذا الباب . وواضح من هذا ان العرب قبل البعثة كانوا على علم بالمحرمات اليهودية ، ويبدو انهم برروا بذلك لا نفسهم ما كانوا يحرمون ويحللون ؛ وفي ذلك من اثر اليهود واليهودية في تقاليد العرب الدينية ما هو ظاهر .

ــ ٧ ــ

ومنها ماجاء في صدد القضاء والشرائع اليهودية كما ترى في الآيات التالية :

« يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هـادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم

لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون ...
المائدة ٤١ — ٤٥

وفحوى الآيات يدل على ان اليهود كانوا أهملوا بعض أحكام شريعتهم، وارسلوا بعضهم الى النبي (ص) ليتحاكموا عنده في قضية من القضايا آملين ان يحكم بما يوافق هواهم . لذلك حملت عليهم الآيات مستغربة كيف يحكمونه ولا يحكمون التوراة التي عندهم والتي أنزلها الله فيها نور وهدى وكان يحكم بها النبيون ؛ ثم ذكرت أحكام التوراة في الدماء والجروح وانها هي التي يجب ان يقضى فيهم وفاقاً لها .

وقد روى ابن هشام والمفسرون (١) ان الآيات نزلت في صدد قضية زان وزانية يهوديين وأن النبي (ص) أراد ان يحكم فيها بالرجم طبقاً لحكم التوراة فانكر اليهود ذلك فأمرهم باحضار التوراة واستعان بحبر يهودي أسلم على اثبات صحة الحكم، وورود أحكام القصاص فقط في سياق الآيات لا يساعد على التسليم بهذه الرواية كسبب للنزول . وعلى كل حال فان الآيات تلهم أن اليهود كانوا مرجعاً من مراجع العرب قبل الاسلام في قضاياهم ومشاكلهم ، وانه كان لهم تأثير فيهم سلباً وايجاباً بسبب ما كان عندهم من علم وشرائع سماوية وعلماء واحبار . وهذا متصل بالبحث الذي نحن فيه . كذلك فان فيها (١) إلهاماً بأن الأحبار والربانيين هم الذين كانوا يتولون القضاء في اليهود على اعتبار أنهم حفظة الشريعة التوراتية ، وعلى كون

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨ وجل المفسرين في تفسير الآيات السابقة.

أساس القضاء هو هذه الشريعة (٢) صورة من الصور اليهودية في صدد الشريعة، وما كان من اهمال بعض أحكامها والتحايل عليها من قبل علماء اليهود واحبارهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

وهـذه الصورة الأخيرة واضحـة عنهم في آيات اخرى حيث يشمل مداهـا لنصوص التوراة عامة ،وحيث تلمح أن هذا كان امرهم قبل البعثة ايضاً :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون ... البقرة ٧٩

٢ — وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

٣ — واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس مايشترون . لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم ... ١٨٧—١٨٨ آل عمران

والآيات تعلل هذا منهم بالرغبة في المنافع الدنيوية والزهو والفخر على غيرهم ، وبالتالي بقصد استغلالهم الدين .

— ٨ —

ومنها ماجاء في صدد عقيدة اليهود بنوة العزير لله كما ترى في هـذه الآية :

«وقالت اليهود عزير ابن الله ... التوبة ٣٠

والآية تدل على ان هذه العقيدة كانت مما يقول بهـا اليهود أو بعض فرقهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

ومنها ماجاء في صدد قذفهم السيدة مريم ودعواهم قتل المسيح (ص) كما ترى في هذه الآيات :

« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يومنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم

بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه ... النساء ١٥٥-١٥٨

والآيات تدل على ان اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته كانوا يجهرون بقذف السيدة مريم بالبهتان ، ويتبجحون بقتلهم المسيح (ص) ؛وهذا متصل بعقائدهم التي سبقت البعثة كما هو واضح .

— ٩ —

ومنها ماجاء في صدد صفات النبي (ص) في التوراة والانجيل كما ترى في الآية المكية التالية .

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ... الاعراف ١٥٧

ولقد جاء في آيات عديدة اشارة الى ان من اليهود من آمن بالله والنبي (ص) والقرآن كما ترى في مايلي :

١ — وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ... آل عمران ١٩٩

٢ — لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك ... النساء ١٦٢

٣ — اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ... الشعراء ١٩٧

٤ — قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله ... الاحقاف ١٠

وآية الاعراف كانت تتلى على مسمع اليهود والنصارى كسائر آيات القرآن طبعاً. فيصح أن يقال بجزم ان في التوراة التي كانت في ايدي اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته صفات لنبي يبعث لأصلاح مايكونون عليه من انحراف ، وتخفيف ماعليهم من تكاليف منطبقة على النبي (ص) صراحة أو تلميحاً ، وان الذين آمنوا بالنبي

(ص) قد رأوا في الرسالة المحمدية صدقاً وتصديقاً للكتب السابقة وأهدافاً إصلاحية سامية وأنهم عرفوا ان صفاته منطبقة على ما في اسفارهم من صفات النبي المبشر به ايضاً .

اما عدم ايمان الذين كفروا منهم فقد كان كما تدل عليه نصوص القرآن الكثيرة التي نقلناها في هذا الفصل وغيره وخاصة في الفصل الثالث من الباب الأول لأسباب كثيرة اخرى مثل الحسد والحقد والاستكبار والاستمساك بالمركز المهدد والمصالح الخاصة ، والجبلة المتمكنة والأنانية العنصرية الخ الخ مما المعنا اليه في المناسبات السابقة .

ولعل فقرة « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » التي وردت في آية البقرة ٨٩ التي نقلناها في الفصل المذكور وفي مناسبات اخرى دليل حاسم على ان اليهود كانوا يترقبون بعثة نبي عربي ويذكرون صفاته التي يجدونها مكتوبة عندهم ويستفتحون على العرب بأنه سيكون من حزبهم ...

— ١٠ —

ومنها ما جاء في صدد مخالفاتهم للشريعة التوراتية وتقصير احبارهم وعلمائهم في واجباتهم الدينية وسوء استعمالهم واستغلالهم لمناصبهم وخلافاتهم :

فاولاً انهم قد حرم عليهم الربا فاكلوه كما جاء في الآية التالية :

« واخذهم الربا وقد نهوا عنه ... النساء ١٦١

وثانياً — انهم قد حرم عليهم قتال بعضهم فخالفوا ذلك كما جاء في الآية التالية :

« واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... البقرة ٨٥

وثالثاً ان علماؤهم كانوا ينسبون الى الله ما ليست نسبته صادقة بقصد التدليس والاستغلال كما جاء في الآيات التالية :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ... البقرة ٧٩

٢ ــ وإن منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ... آل عمران ٧٨

ورابعاً انهم كانوا يكتمون الحق الذي يعرفونه لنفس القصد ايضاً كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ... البقرة ١٤٦

٢ ــ واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ... آل عمران ١٨٧

وخامساً ان احبارهم وربانييهم كانوا يرون ارتكاس ابناء طائفتهم في الآثام فيتغاضون عن وعظهم ونهيهم كما ترى في الآيات التالية :

« وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا (١) ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون . المائدة ٦٢ ــ ٦٣

وسادساً ان كثيراً من احبارهم كانوا يستغلون طاعة عامتهم لهم طاعة عمياء فيجنون من وراء ذلك الاموال الطائلة . حتى انهم استغلوا نفوذهم في صد الناس عن الدعوة النبوية كما ترى في الآيات التالية :

١ ــ اتخذوا احبارهم ورهبانهم اراباباً من دون الله ... التوبة ٣١

٢ ــ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ... التوبة ٣٤

وسابعاً انه كان بينهم اختلافات في فهم نصوص التوراة جعلتهم فرقاً واحزابا وكان للهوى اثر في هذه الظاهرة كما ترى في الآيات التالية :

---

(١) لولا : هنا وفي كثير من الآيات بمعنى هلاّ

١ — وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم
آل عمران ١٩

٢ — إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون.
النمل ٧٦

٣ — ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ... فصلت ٤٥

٤ — وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ... الشورى ١٤ — ١٥

٥ — ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ...
الجاثية ١٦ — ١٧

والآيات التي اوردناها آنفاً وان كانت قد نزلت بعد البعثة وفي صدد وظروف الدعوة فانها كما تلهم روحها ومضامينها تصور في الحقيقة ما كان عليه اليهود من أمر قبل البعثة، وان مابدا منهم في صدد وظروف الدعوة مما كان سبباً لنزول الآيات انما كان استمراراً لما سبق.

— ١١ —

هذا؛ وبالاضافة الى ماتقدم نقول: انه لاشك في ان العرب كانوا قد عرفوا عن طريق اليهود كثيراً من القصص التوراتية واخبار انبياء أسفار التوراة وأممهم ومعجزاتهم، وان هذا كان ذا أثر كبير في زيادة معارفهم وثقافتهم الفكرية والدينية والدنيوية بصورة عامة. فكثير من القصص التوراتية قد أشير اليها في القرآن مكرراً في معرض التنديد بالعرب وتذكيرهم ومخاطبتهم وهذا يلهم ما قلناه لأن الحجة تستحكم في من يعرف هذه القصص ويعترف بها؛ هذا عدا ان اسلوبها

يلهم انها تتلى على اناس غير غافلين عنها ؛ ولقد كان من اثر ذلك ان كانت هذه المعارف وسيلة من وسائل جدلهم وحجاجهم مع النبي (ص) وطلبهم منه الاتيان بالمعجزات كما أتى الرسل السابقون كما حكته آية القصص :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ماأوتي موسى ... ٤٨

وآية الانبياء : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ... ٥

كما كانت باعثة لتمنيهم بعثة نذير فيهم ليكونوا اهدى من الامم التي سبقتهم مما حكته آية فاطر (٤٣) ، وكل هذا لا يتأتى الا عن معرفة باخبار الاولين واحوال الحاضرين بطبيعة الحال .

كذلك فان القرآن قد استشهد اكثر من مرة في معرض الحجاج مع العرب ودعوتهم والتنديد بهم بأهل الذكر والكتاب الذين يدخل اليهود فيهم وبالكتب السماوية وبصحف موسى وبالاسرائيليين وعلمائهم نصاً مما نقلنا كثيراً من آياته في الفصل الثالث من الباب الاول وفي هذا الفصل مثل آيات الانعام ١١٤ ويونس ٩٤ والنحل ٤٣ والشعراء ١٩٧ والعنكبوت ٤٧ وسبأ ٦ والاحقاف ١٠ والقصص ٥٢ — ٥٥ والرعد ٣٦ ومثل الآيات التالية :

١ — وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى .
طاها ١٣٣

٢ — أم لم ينبأ بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وفى ...
النجم ٣٦ — ٣٧

٣ — إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف ابراهيم وموسى ...
الاعلى ١٨ — ١٩

والحجة في كل هذا لا تستحكم إلا اذا كان العرب والنابهون ممن يسمعون القرآن ملمين بما عند اليهود من كتب واخبار ومعارف ، وواثقين فيهم ومتأثرين بهم قليلا او كثيرا كما هو المتبادر .

— ١٢ —

أما النصرانية فقد وصلنا في الاستلال في الفصل الثالث من الباب الاول

الى القول بوجود جالية اعجمية نصرانية في مـــكة ، وباحتمال وجود جالية اعجمية نصرانية في يثرب ايضاً وبترجيح وجود عرب متنصرين مستقرين في بيئـة النبي (ص) وعصره ايضاً .

ونقول هنا ان الذي نرجحه ان مدى انتشار النصرانية فى عرب الحجاز كان ضيقاً وانه لم يكن ليتجاوز الحوادث الفردية ؛ وذلك استلهاماً من عدم وجود صدى قوى لاحتكاك النبي (ص) بالنصارى في القرآن الكريم ، لا في الآيات المكية ولا في الآيات المدنية كما هو الامر بالنسبة إلى اليهود في يثرب ؛ فلو كان للنصرانية بوجه عام وللنصرانية العربية بوجه خاص كيـان قوى ونطاق واسع في بيئة النبي (ص) لكان القرآن قد ردد صدى ذلك ، ولكانت حدثت حوادث كثيرة متنوعة تتناقلها الروايات ويصل الينا منها ما يمكن ان يدل عليها .

- ١٣ -

اما في غير الحجاز فانه وان لم يكن في القرآن شيء صريح ايضاً عن مدى انتشارها بين العرب فان فيه اشارات عديدة تكاد تجمع الروايات على انها في صدد اجتماعات وقعت بين النبي (ص) ووفود نصرانية عربية يمـانية وشامية ؛ وفي هذه الاشارات مايلهم صحة ذلك : لان منها ما حكي من تأثير السامعين بالقرآن إلى حد فيضان عيونهم بالدموع مما يحمل على القول أنهم كانوا يفهمون العبارة القرآنية فهماً وافياً ، وهذا لايحتمل إلا من العرب على ما هو المتبادر . وطبيعي ان وفادة وفود للاتصال والاستطلاع والمناظرة لابد من ان يكون وراءها كتل اضطربت فيها الافكار والاخبار . وفيه كذلك أمر بقتال الذين لايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من أهل الكتاب اعقبه بعد آيات استطرادية قليلة استنفار لغزوة بعيدة الشقة أجمعت الروايات على انها غزوة تبوك ، وانها كانت ضد القبائل العربية التي يدين كثير منها بالنصرانية في مشارف الشام والتي كانت تعتدى على القوافل والسابلة آناً بعد آن . فهذه الاشارات القرآنية المفسرة بالروايات غير المتناقضة مع مضامينها تسوغ القول بان النصرانية كانت منتشرة بنطاق واسع بين عرب مشارف الشام ، وانهـا كانت

منتشرة في كتلة غير ضئيله من عرب اليمن ايضاً (١) . والروايات المعتبرة المتصلة بالمشاهدات التي هي درجة اليقين تؤيد ذلك من جهة وتؤيد انتشارها كذلك في مدن وقرى وبوادي الشام والعراق وبين النهرين من جهة اخرى . اما الاشارات القرآنية التي نوهنا بها فهي :

آيات الاسراء ١٠٧ — ١٠٩ والقصص ٥٢ — ٥٥ والاعراف ١٥٧ ومريم ١٦-٣٧ والتوبة ٣٥ والنساء ١٧١ — ١٧٢ والمائدة ٧٢ — ٧٩ و ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وفي سلسلة طويلة من سورة آل عمران التي اجمع الرواة على انها في صدد المناظرة التي وقعت بين وفد نجران ، وفي آيات من سورة التوبة . واليك سلسلة آل عمران :

«إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك مافي بطني محرراً فتقبل مني انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني اعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كل ما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين. قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار . وإذا قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

---

(١) ذكر القاسم بن سلام في سلام الاموال ان نصارى نجران اليمن هم عرب من بني الحرث بن كعب . وذكر ابن هشام أنه كان من رؤساء وفد نجران ابو حارثة بن علقمة احد بني بكر وائل وكان اسقفهم وحبرهم وامامهم ، وكانوا ستين شخصاً ومن اسمائهم التي اوردها والمتبادر انهم من البارزين أوس والحرث وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويله وعمرو وخالد وعبد الله وعبد المسيح ج ٢ ص ١٦٥ — ١٧٦ وهي اسماء عربية خالصة.

نساء العالمين . يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب انّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الأكمه والابرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم بما كنتم فيه تختلفون . فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين . قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . ٣٥ — ٦٤

واليك آيات سورة التوبة .

١ — قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ... ٢٩

٢ — يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ... ٣٤

٣ — يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ... ٣٨

٤ — انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً(١) لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ... ٤١-٤٢

٥ — لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة (٢) من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم ... ١١٧

— ١٤ —

واذا كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي (ص) الخاصة ضيقاً فان هذا لايعني ان تأثيرها كان ضعيفاً فيها . فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدراً من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز والتي استدللنا عليها من آيات عديدة اوردناها في الفصول السابقة لاسيما فكرة الله وفكرة اتخاذ الله بنين وبنات والملائكة واعتبار كونهم بنات الله ، ولعل فكرة الشفاعة والشفعاء واتخاذ

(١) فيها أشارة الى أن الاستنفار لغزوة بعيدة شاقة وهي غزوة تبوك بأجماع المفسرين والتي كانت أشد واعظم الغزوات النبوية جهداً وعدد محاربين ومدة غياب.

(٢) سمي جيش تبوك بجيش العسرة اقتباساً من هذا التعبير القرآني لشدة الظرف .

الملائكة شفعاء هي في أصلها مما اقتبسه العرب من النصرانية وشفاعة قديسيها .

وفي آيات سورة الزخرف ٥٧—٦٥ التي أوردناها في فصل الملائكة وشرحنا جدل العرب الطريف عن اتخاذهم الملائكة آلهة واعتبار أنفسهم في هذا اهدى سبيلا من النصارى باتخاذهم عيسى (ص) آلهاً ، وفي آيات الأنعام (١٥ - ١٥٧) التي نقلناها في فصل إعتراف العرب بالله وفي آية فاطر (٤٢) التي حكت نذر العرب باتباع النذير الذي يجيئهم وقولهم إنهم سيكونون به اهدى من احدى الأمم ، وفي الآيات العديدة المكية التي تذكر ما كان من خلاف ونزاع وانقسام بين الأحزاب والفرق النصرانية مما اوردناه في هذا الفصل والفصول السابقة دلائل على ما كان عند عرب الحجاز وعرب مكة خاصة من الملم غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وأشكالات ولادة المسيح (ص) ونبوته وصلبه ، وما كان فيها من مذاهب وآراء . وطبيعي أن يكون لهذا كله رد فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم . هذا بالاضافة الى ماذكرناه قبل قليل في بحث اليهود في صدد استشهاد اهل الكتاب وما أوردناه من آيات في ذلك ، حيث يشمل هذا النصارى والنصرانية كما يشمل اليهود واليهودية ، وحيث يدل على ما كان من ثقة العرب السامعين بالنصارى ومعارفهم كما هو الأمر بالنسبة لليهود مما يستتبع التأثر بهم بطبيعة الحال .

وإذا أريد أن يقال انه لم يكن في بيئة النبي (ص) الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون لهم تأثير بالغ في العرب كالذي يمكن ان يكون لليهود بسبب كثرتهم فينبغي ان لا ننسى أنه كان في مكة من النصارى الذين هم مظنة علم وتعليم على ما اشرنا اليه في مناسبات سابقة ما يكفي لتأثر نابهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي (ص) والذين حكي القرآن على الاغلب مواقفهم واقوالهم ، والذين كانوا على الارجح مصدر الافكار وبثها في الطبقات الاخرى من العرب ، وأن مشركي مكة ذهبوا فيما ذهبوا اليه إلى أن النبي (ص) نفسه قد تعلم وتأثر بهم على ما حكته عنهم آيتا النحل والفرقان (١٠٣ و ٤) ؛ وأن لا ننسى كذلك تلك الالوف المؤلفة من متنصرة العرب الذين كان الحجازيون خاصة يغدون ويروحون اليهم في اسفارهم ورحلاتهم ، ويخالطونهم مخالطة الشقيق ، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك ، وان لا ننسى ايضاً ان

كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج واسواقه ، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة ؛ وان الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء واجداد جمعاً وثيقاً تتصل اواصره وتستمر مظاهره ، وانه كان كثير من العرب غير النصارى وخاصة الحجازيين يصهرون الى العرب النصارى وبالعكس فتزداد هذه الاواصر والمظاهر قوة وسلمة ، وان كل هذا من شأنه ان يهيء لعرب الحجاز الفرص الكثيرة الوافية للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر .

— ١٤ —

هذا ؛ وفي القرآن آيات كثيرة حول النصارى والعقائد النصرانية يمكن ان يستدل بها على أمور عديدة مما كان عليه النصارى من عقائد وعادات وافكار في عصر النبي (ص) وبيئته وفي غير بيئته ممن كان يتصل بهم أهل بيئته ويحتمل ان يكونوا قد عرفوه عنهم .

فاولاً ان النصارى او بعض فرقهم كانوا يؤلهون مريم كما يستلهم من الآيات التالية .

١ — ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انّى يؤفكون ... المائدة ٧٥

٢ — وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ... المائده ١١٦

وثانياً ان النصارى كانوا يقولون إن المسيح هو الله وإن الآلهة ثلاثة وإن الله ثالث ثلاثة كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ... النساء ١٧١

٢ — لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ... المائدة ١٧

٣ — لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من اله إلا إله واحد ... المائدة ٧٣

وثالثاً أن اهمها كانوا يستندون إليه في تقرير الوهية عيسى (ص) او صفته الالهوتية هو معجزة ولادته بدون أب . وهذا مستلهم من اهتمام القرآن أو بالاحرى حصر اهتمامه لتفنيد استنتاج تلك النتيجة من هذه المعجزة ؛ ويتجلى هذا في الاسهاب الوارد حول هذا الامر في سورة مريم المكية وسورة آل عمران المدنية في صدد مناظرتهم ووضع الامر في نصابه . وقد أوردنا في الفصل الثالث من الباب الاول آيات سورة مريم .

ورابعاً إن معجزة ولادة يحيى (ص) بعد شيخوخة ابيه (ص) وعقم امه كان مما يعترف به النصارى حيث جاء ذكرها في القران مكررة وبمثابة حجة وتدعيم لامكان معجزة ولادة المسيح (ص) دون ان يترتب على ذلك صفة الوهية له كما هو شأن يحيى (ص) . وهذا يستلهم من سلسلة آل عمران التي جاءت فيها قصه ولادة يحيى بمثابة مقدمة وتمهيد لقصة ولادة عيسى (ص) ، وجاءت كذلك في سورة مريم كما ترى في ما يلي .

« كهيعص (١) ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً

(١) تقرأ هكذا : كاف ها يا عين صاد اي بأسماء الاحرف .

سويا . قالت إني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكيا ... سورة مريم ١ - ١٩

ومما يجدر التنبيه عليه ان في كلتا السلسلتين ذكر عيسى (ص) فقط في اواخر الآيات كتعقيب على الكلام وكنتيجة له ؛ كما جاء في الآيات ٩ - ٦١ من سلسلة آل عمران وكما جاء في اخر سلسلة سورة مريم :

«ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى امراً فأنما يقول له كن فيكون ... ٣٤ - ٣٥

وقد استحكمت الحجة القرآنية حيث اوردت قصة ولادة يحيى التي يعترف النصارى بمعجزتها مقدمة لقصة ولادة عيسى (ص) .

وخامساً ان أمر صلب عيسى (ص) كان من الامور المختلف عليها في الاوساط المسيحية كما تلهم الآية التالية :

«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما له به من علم الا اتباع الظن ... النساء ١٥٧

وسادساً ان النصارى كانوا فرقاً وأحزاباً من حيث العقائد والمذاهب والدينية ومن حيث امر المسيح (ص) نفسه ايضاً . وهذا مستلهم أولا من آية النساء ١٥٧ التي نقلناها قبل قليل ومن آيات البقرة ٢٥٣ وآيات الزخرف ٦٣ - ٦٥ وآية مريم ٣٧ التي نقلناها في فصول سابقة وثانياً من روح آية فاطر ٤٢ التي تحكي نذر العرب بأن يكونوا أهدى من النصارى واليهود اذا جاءهم نذير ؛ حيث يدل هذا على ان العرب كانوا يرون الانحراف والمغالطة والاختلاف فتثور دهشتهم ويقولون ما يقولون .

— ١٥ —

وسابعاً انه كان في عصر النبي (ص) فرق نصرانية متطابقة في العقائد مع التقريرات القرآنية ؛ وهذا مستلهم من ايات المائدة ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها في مناسبة سابقة حيث تذكر صراحة ان دموع النصارى وفيهم القسيسون والرهبان فاضت مما

سمعوه من القرآن ورأو فيه الحق الذي عرفوه واعلنوا ايمانهم به(١). وفي السور المكية آيات اخرى رجحنا في الفصل الثالث من الباب الاول انها تعني النصارى وفيها قرائن ودلائل على ما نقول ؛ وهي آيات الرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢ — ٥٣ التي نقلناها في ذلك الفصل .

ومعلوم ان من جملة التقريرات القرآنية كون المسيح عبدالله ورسوله ، وكون ولادته معجزة مماثلة لمعجزة ولادة يحيى وآدم (ص) وكونه انما دعا الى الله وحده . وهذا التصديق الذي تحكيه الايات عن النصارى يتضمن هذه التقريرات بطبيعة الحال . ونتبه على ان التقريرات المكية مما نزل مبكراً كما يستلهم من ترتيب نزول السور والاسلوب . ولعل في آية الاسراء الاخيرة التي جاءت عقب الآيتين الاخيرتين الذكر وهي :

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ... ١١١

قرينة على ما نقول حيث تتبع حكاية قول النصارى بحمد الله الذي لم يتخذ ولداً ولم تشب وحدته شائبة؛ حتى لكأن هذا الحمد يطوي معنى حمد الله الذي جعل فريقاً من النصارى يصدق قول القرآن في هذا ويقوم شاهد عليه منهم .

ومما يلوح لنا من أسلوب الآيات القرآنية من جهة ومن الروايات التي ذكرت أن الدعوة الاسلامية قد لاقت عند افراد الجالية الكتابية النصرانية قبولاً حسناً كما لاقت مثل ذلك في الاوساط النصرانية الاخرى وخاصة في الحبشة من جهة اخرى أن هذه الفرق لم تكن قليلة العدد أو شاذة ، وانها كانت تشغل حيزاً غير يسير . ولعل هذا مما يفسر لنا إقبال النصارى في بلاد الشام ومصر على الاسلام في الادوار الاسلامية الاولى .

---

(١) ذكر ابن هشام ج٢ ص١٦٧ أن أبا الحارث بن علقمة كان اسقف نجران وجاء على رأس وفدها قد شرفه قومه وملوك النصارى وموّلوه وإن ابن أخاً له كان معه دعا على النبي (ص) فقال له أخوه لاتقل إنه والله النبي الذي كنا ننتظر فقال له أخوه وما يمنعك منه قال ماصنعه بنا قومنا شرفونا وموّلونا واكرمونا فلو فعلت نزعوا منا كل ماترى...

ومما يتصل بهذا المعنى بشارة عيسى (ص) بالنبي التي احتوتها آية الصف(٦)التي نقلناها في مناسبة سابقة ، وما ذكرته آية الاعراف (١٥٧) التي نقلناها قبل والتي تنوه بالذين يتبعون الرسول النبي الاممي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل . ونكرر ماقلناه سابقاً من أن الآيتين كانتا تتليان على مسمع النصارى واليهود وانه لما لايحتمل شكاً أنهما كانتا تقرران امراً مطابقاً لما كان عندالنصارى أو لما كان يعتقده بعض فرقهم وما كانت تحتويه بعض أناجيلهم من صفات صريحة أو ضمنية ، وإن هذا مما كان سبب ذلك القبول والارتياح .

— ١٦ —

وثامناً ان كثيراً من رهبان النصارى كانوا يستغلون طوائفهم ويجنون من وراء ذلك الاموال الطائلة وكانوا يصدونهم عن سبيل الله استبقاءلنفوذهم ومصالحهم كما تلهم آية التوبة (٣٤) التي نقلناها في بحث اليهود قبل قليل .

وتاسعاً إنه كان من النصارى الذين ينذرون الرهبانية من لايرعاها حق رعايتها كما تلهم الآية التالية :

«ورهبانيةً ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ... الحديد ٢٧

وعاشراً لقد ورد تعبير روح القدس الذي يسمي به النصارى أحد الاقانيم الثلاثة (الاب والابن وروح القدس) عدة مرات في القرآن حيث جاء في صدد تأييد الله به عيسى (ص) كما ترى في الآيات التالية :

١ — وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ... البقرة ٨٧و٢٥٣

٢ — إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ... المائدة ١١٠

وجاء في صدد تنزيل القرآن على النبي (ص) كما ترى في الآية التالية :

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين النحل ١٠٢

والسؤال الذي يرد هو ما إذا كان هذا التعبير عربياً اصلياً او ترجمةً لما كان

يقابله عند النصارى الأعاجم؛ وما اذا كانت دلالته قبل البعثة على الاقنوم النصراني فحسب او كان يدل على معنى آخر .

فأولاً إن كلمة « قُدُس » قد جاء لها اشتقاقات في القرآن مثل « الوادالمقدس » طاها ١٢ » و « الأرض المقدسة ... المائدة ٢٢ » و « نقدس لك ... البقرة ٣٠ » و « القدّوس ... الجمعة ١ » وان هذا يسوغ القول أنها جذر عربي ، وإن كان من يقول انها دخيلة من لغة سامية اخرى ؛ وحتى على فرض أن هذا الجذر في لغة سامية أخرى فلا يقتضي هذا ان يكون دخيلاً على اللغة العربية التي تشترك مع اللغات السامية الاخرى في اكثر الجذور . ومهما يكن من أمر فان هذا الجذر من جهة وتعبير « الروح القدس » من جهة اخرى يجب ان يعتبرا عربيين وانهما كانا مستعملين في المعاني التي وردا فيها في القرآن قبل نزوله ، لان القرآن إنما نزل باللسان العربي المبين .

وثانياً لما كان معنى التعبير من المعاني الاساسية في العقيدة النصرانية كما أنه لم يكن للعرب عهد بوحي رباني يمكن أن يطلق عليه هذا التعبير فالذي نرجحه أنه ترجمة لمقابله في اللغات والكتب غير العربية التي كان يتكلم بها ويقرأها النصارى غير العرب .

وثالثاً اننا نرجح أن النصارى العرب هم الذين ترجموا معنى التعبير إلى اللغة العربية واطلقوه على الاقنوم النصراني حسب عقيدتهم . ومع ترجيحنا هذا فاننا لا نستبعد إن لم نقل نرجح أن الفرق النصرانية التي كانت تتطابق عقائدها في المسيح (ص) مع التقريرات القرآنية على ما ذكرناه قبل قليل كانت تستعمله في الاشارة الى ملك الله ووحيه . وهذا المعنى هو الذي اريد له في القرآن سواء كان في صدد تأييد عيسى (ص) او في صدد تنزيل القرآن كما تلهمه روح النصوص القرآنية وكما ذهب اليه جمهور المفسرين .

وهذا الجمهور يذهب كذلك الى ان تعبير « روح القدس » يعني جبريل ملك الله بالذات ، وليس ملكاما . وفي سورة الشعراء آيتان هذا نصها :

« نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ... ١٩٣ — ١٩٤

وفي سورة البقرة آية هذا نصها :

«قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه. ٩٧

وهكذا يربط هذا التشارك بين جبريل وتعبير روح القدس كما هو واضح .

وملك الله جبريل ذكر في بعض أسفار العهدين القديم والجديد كواسطة لتبليغ انبياء الله وتنفيذ اوامر الله . وآية البقرة (٩٧) قد جاءت في سياق التنديد باليهود وتلهم انهم قد جهروا بعدائهم لجبريل مما يدل على ان اسمه مما كان متداولاً بين اليهود ايضاً بصفته ملك الله . ولا ندري هل الفرق النصرانية التي تطابقت عقائدها مع تقريرات القرآن والتي رجحنا انها كانت تطلق تعبير روح القدس على ملك الله كانت تعني به جبريل بالذات ام لا ، وان كنا نرجح ذلك .

— ١٨ —

وختاماً لبحث النصارى واضافة الى ما قلناه في مطلع البحث وفي اثناء هذه الفقر نقول انه ليس من شك في ان العرب قد عرفوا من طريق النصارى كما عرفوا من طريق اليهود كثيراً من قصص التوراة والانجيل ومعجزات المسيح (ص) وسيرة النصرانية والحواريين الاولى ، وان هذا كان ذا اثر في معارفهم وثقافتهم الدينية والفكرية ؛ وان القصص النصرانية الخالصة في القرآن مثل قصة المائدة (الآيات ١١٢—١١٥) وقصة أصحاب الكهف في سورة الكهف (الآيات ٩-٢٦) وقصة أصحاب القرية في سورة ياسين (الآيات ١٣-٢٧) وقصة الحواريين في آيات آل عمران التي نقلناها قبل وفي سورة الصف (الآية ١٤) التي يتضمن اسلوبها زجراً او حثاً او تذكيراً او تمثيلاً كانت مما المم به العرب قبل البعثة من طريقهم ؛ وان الامهم واقتباسهم كانا وسيلتين الى ما كان يبدو منهم من جدل مع النبي (ص) حول عيسى (ص) واختلافات النصارى خاصة وحول دعوته وشخصيته بوجه عام.

— ١٩ —

واخيراً نريد ان نبحث في مدى ما كان للتوراة والانجيل قبل البعثة من المفهوم، وفيما اذا كان من الممكن أن نجد لذلك ملمحات من القرآن .

فبالنسبة للتوراة نقول :

اولاً ان هذا اللفظ ليس له جذر عربي ، وانه تسمية عبرانية الاصل لاسفار موسى (ص) الخمسة وما تزال تطلق عليها . وكل ما في الامر ان اللفظ القرآني معرب ، وقد عرب على وزن فعلاة ، والمتبادر ان التعريب سابق للقرآن ، وان اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملا قبل نزوله في اللسان العربي .

وثانياً ان كلمة « التوراة » وردت في القرآن ثماني عشرة مرة ، واحدة منها في آية وسورة مكية وباقيها في آيات وسور مدينة ؛ ومنها ما فيه دلالة صريحة على ان القصد من التوراة هو كتاب الشريعة اليهودية المنزلة من الله مثل ما جاء في آيات سورة المائدة ٤٣-٤٤ وسورة آل عمران ٩٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة من هذا الفصل . ومنها ما جاء مطلقاً ، كما ان منها ما جاء في صدد حجاج اليهود في ابراهيم (ص) والتطابق بينها وبين ما نزل وجاء من كتب الله وانبيائه ، مما لا يبعد ان يكون قد عنى الاسفار الخمسة التي يسميها اليهود فقط بالتوراة ، ومن الآيات التي وردت الكلمة فيها مطلقة آيات الاعراف ١٥٧ والصف ٦ وآل عمران ٦٥ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومنها الآيات التالية :

«نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ... آل عمران ٣

ونقيد ان التوراة لم تأت مقرونة بموسى (ص) في القرآن ؛ وان ما جاء مقروناً به هو الفاظ « الكتاب » و « الألواح » كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... البقرة ٨٧

٢ — ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ... هود ١٧

٣ — وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ... الأعراف ١٤٥

ومع ان آية الألواح تلهم انها قد تعني الأسفار الخمسة التي احتوت تفصيلاً لكل شيء وموعظة من كل شيء وتشريعاً وأحكاماً فالمعروف في تاريخ اليهود انها غير الاسفار الخمسة . اما لفظ الكتاب في آيتي البقرة وهود وغيرها مما لم ننقله فالمرجح ان لم نقل المحقق انه عنى التوراة او الأسفار الخمسة .

ومهما يكن من امر فأن آيات آل عمران ٩٣ والمائدة ٤٣-٤٤ وآيات في المائدة سنوردها بعد قليل وهي الآيات ٦٥-٦٨ تلهم بصراحة ان القرآن قد عنى بالتوراة ما كان متداولاً بين ايدي اليهود مما كان يطلق عليه هذا الأسم في العهد النبوي وقبله بالتبعية وبقطع النظر عن تاريخه .

وثالثاً إذا استثنينا الزبور الذي ذكر القرآن ان الله آتاه داود (ص) في آيتين احداهما مكية وثانيهما مدنية والنص فيها واحد وهو : « وآتينا داود زبوراً ... النساء ١٦٣ والأسراء ٥٥ » والذي هو على الارجح سفر المزامير احد اسفار العهد القديم فانه ليس في القرآن اشارة ما الى الاسفار العديدة الأخرى التي يضمها هذا العهد اليوم .

على ان ذكر زبور داود (ص) في القرآن يمكن ان يلهم أن اسفار العهد القديم كانت او كان بعضها متداولاً بين ايدي اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ كما ان ورود بعض القصص القرآنية المشابهة لبعض قصص غير الاسفار الخمسة من الاسفار الأخرى مثل قصة ايوب ويونس ، وورود اشارات الى ما طرأ على بني اسرائيل من بعد موسى من نكبات وتطورات وانحرافات وما كان من حروب طالوت وجالوت على سبيل التذكير والتنديد او الموعظة يمكن ان يلهم ذلك ايضاً ، وان كنا نرجح ان تسمية التوراة لم تكن تطلق إلا على الاسفار الخمسة كما هي الحال الآن عند اليهود او بعضهم على الأقل كالسامرة في نابلس، وان الاسفار الأخرى لم تكن مجموعة معها في مجموعة واحدة .

وطبيعي انه لا يمكن الجزم بما اذا كانت هذه الأسفار التوراتية وغير التوراتية المتداولة اليوم هي التي كانت متداولة اذ ذاك عدداً وخصوصاً حرفية .

وبالنسبة للأنجيل نقول:

اولاً ان هذا اللفظ ليس اشتقاقاً عربياً أيضاً ، وانه معرب ، وقد صيغ على على وزن أفعيل وان التعريب والاستعمال سابقان لنزول القرآن .

ثانياً ان الأنجيل قد ذكر في القرآن اثنى عشر مرة ؛ وقد جاء مقروناً بعيسى (ص) وفي الآيات صراحة بأن الله آتاه له وعلمه اياه ، وهذا مذكور في احدى

آيات سلسلة آل عمران الطويلة التي نقلناها وهي الآية ٤٨ وفي غيرها ونورد احداها في ما يلي :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور ... المائدة ٤٦

وقد ورد ذكره أيضاً في معرض التنويه والحجاج في مثل آيات آل عمران٣ والأعراف ١٥٦ التي نقلناها وغيرها . هذا بالاضافة الى انه ورد في القرآن كلمة الكتاب مقرونة بعيسى (ص) وذلك في احدى آيات سورة مريم :

«قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ... ٣٠

على ان في بعض الآت ما يلهم بقوة ان الكلمة تعني الأنجيل الذي كان بين يدي النصارى في عصر النبي (ص) وبيئته كما ترى في ما يلي :

١ — وليحكم أهل الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون ... المائدة ٤٧

٢ — ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو انهم أقاموا التوراة والأنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ... المائدة ٦٥ - ٦٦

٣ — قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والأنجيل وما أنزل اليكم من ربكم ... المائدة ٦٨

وثالثاً انمن المعلوم ان الأنجيل المتداول بين أيدي النصارى اليوم ليس واحداً وإنما هو اربعة بل يقال انها اكثر من ذلك ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ان أسلوبها صريح على انها كتبت بعد عيسى(ص) بمدة ما لتحتوي قصة حياته ورسالته وتعاليمه ومعجزاته ، والسؤال الذي يردهو ماذا كانت الأناجيل متعددة في عصر النبي (ص) وبيئته ، وماذا كانت هي نفس الاناجيل المتداولة اليوم نصاً وأسلوباً؟

إن الاجابة على هذا السؤال بالايجاب متعذرة في نطاق القرآن ؛ فانه يقرر من جهة للأنجيل صفة التنزيل والتعليم الرباني به لعيسى (ص) مباشرة ويلهم كونه

كتاباً أنزل عليه كالتوراة ، ومن جهة ثانية يلهم انه الكتاب الذي كان متداولا بهذا الاسم بين أيدي النصارى وحسب ؛ وكل ما في الامر انه يلوح للمرء من عدم جمع اللفظ انه لم يكن متعدداً ؛ كما يستلهم من حكاية اقوال النصارى وفيهم القسيسون والرهبان عن القرآن انه الحق من ربهم ، وانهم كانوا من قبله من مسلمين ن في نصوص ما كان متداولا بين ايديهم تطابقاً مع التقريرات القرآنية وبشارات عيسى (ص) بالنبي الأمي محمد عليه السلام . على انه لما كان القرآن قرر في صدد ولادة عيسى (ص) تقريرات فيها شيء من المماثلة لما هو وارد في بعض الأناجيل المتداولة فمن الممكن ان يقال ان بعض هذه الأناجيل كان هو المتداول بين ايدي النصارى في ذلك العهد .

— ٢٠ —

هذا ؛ وهناك نقطة اخرى متصلة بهذا البحث وباليهودية والنصرانية العربية ثم بالثقافة العربية بوجه عام . وهي ما اذا كان مايسمى التوراة والانجيل في عصر النبي (ص) وبيئته منقولا الى العربيه ام لا .

ان القرآن يحكي مواقف حجاج ومناظرة دينية بين النبي (ص) من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى ، ويحكي تأثر بعضهم بالقرآن وتصديقهم له وايمانهم به مما نقلنا آياته في مناسبات سابقة . ولقد استلهمنا من ذلك ان من بين الذين اتصلوا بالنبي (ص) عرباً كما أن غير العرب كانوا يفهمون العربية . والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بان آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى ، ومنهم البدو ، ومنهم الحضر ، وانهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق ، ولهم اساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم واديارهم الكثيرة ؛ واستتباعاً لهذا فان من السائغ ان يقال انه لا بد من أن يكون بعض اسفار العهد القديم والعهد الجديد ان لم يكن جميعها قد ترجمت الى العربية قبل الاسلام ، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح ؛ نقول هذا لاننا لم نطلع على قول ما في صدد وجود ترجمة عربية لهذه الاسفار تمت الى ما قبل البعثة ، وكل ما عرفناه خبر ترجمة عربية لبعضها

منسوبة الى القرون الاسلامية المتوسطة ، ولعل ما في القرآن من اسماء وكلمات معربة كثيرة ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الاسفار مثل التوراة والأنجيل وروح القدس وجبريل وميكال والزبور ونوح وابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب وادريس ويوسف وموسى وهارون وقارون وفرعون وداود وسليمان وطالوت وجالوت وعزير ومسيح وعيسى وزكريا والياس واليسع وذي الكفل ويونس وايوب وحواريين وسيناء وسينين ويهود ونصارى وتابوت الخ مما تصح ان تكون قرائن على ذلك ؛ ونرى ان هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات الوف العرب النصاري وآلاف الرهبان والقسيسين العرب ومئات الكنائس والاديار العربية ؛ وقد شملنا بالقول اسفار العهد القديم لأن النصرانية تعتبرها جزءاً متمماً للشريعة ، وهذا ما نص عليه القران بذكره كون عيسى (ص) مصدقاً لما بين يديه من التوراة في اكثر من آية من آياته ، وقد جاء هذا في سياق الآيات التي نقلناها بنوع خاص في سلسلة آل عمران . واذا صح ماتقوله فتكون هذه الترجمة مصدراً رئيسياً مدوّنا من مصادر ثقافة العرب ومعارفهم النصرانية واليهودية خاصة قبل البعثة كما هو المتبادر .

الفصل الثامن

في الطقوس والعادات والأفكار الدينية المتنوعة

متناول الفصل — عبادة الشمس والقمر والكواكب — مغزى تسمية «عبد شمس» مدى الآيات عن عبادة سبأ للشمس — روايات عن عبادة بعض الكواكب — المجوسية أو عبادة النار في الحجاز — في غير الحجاز — الصلاة قبل البعثة — حالات القيام والركوع والسجود — الصيام — الاعتكاف — مزية رمضان قبل البعثة — اجتماعات يوم الجمعة — تقريب الأولاد للآلهة — تقريب القرابين — ذكر غير الله على الذبائح — عادات متنوعة في تحليل وتحريم الانعام — الاستقسام بالأزلام — الطيرة والتطير — التعاويذ والرقى — الأحلام وتعبيرها — النفس ومفهومها — الروح ومفهومها .

— ١ —

نريد أن نبحث في هذا الفصل فيما يمكن الاستدلال عليه من القرآن من طقوس وعادات وتقاليد وأفكار وأوهام عليها صبغة دينية مما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة ، ولم يرد ذكرها في الفصول السابقة تكملة للصورة القرآنية في العقائد والأديان .

وسندرس فيه كذلك موضوعاً لم ندرسه بعد بيناهو رئيسي في العقائد والأديان، وهو موضوع عبادة الكواكب والنار عند العرب . وقد أدخلناه في هذا الفصل لأن الكلام فيه لا يحمل فصلاً خاصاً من جهة . ولأن هذه العبادة ان صحت لا تجاوز ان تكون طقساً من الطقوس من جهة اخرى .

— ٢ —

لقد ورد في القرآن بعض آيات نهى فيها عن السجود للشمس والقمر وهي هذه:

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسئمون ... فصلت ٣٧-٣٨

وفي إحدى آيات سورة الحج ذكر المجوس في عداد أصحاب الأديان وهي هذه:

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ... الحج ١٧

فهذه الآيات تحمل على التساءل عما اذا كان العرب أو فريق منهم عبد فيما عبد القوى والمظاهر السماوية والطبيعيـة كالشمس والقمر والنجوم والنار وخاصة في بيئة النبي (ص) وعصره .

ومما يلفت النظر أن آيات فصلت لم ترد في معرض قصص الأمم الاخرى ، وإنما وردت في معرض الدعوة إلى الاسلام والتنويه بعظمة الله ، والخطاب فيها للقريب ، وهي مكية وقد وجهت الى أهل بيئة النبي (ص) الخاصة الذين كانوا أول من يسمعون القرآن ويخاطبون به .

كذلك مما يلفت النظر ان قريشاً كانت تسمى « عبد شمس » وهذا الاسم كما هو المتواتر الى حد اليقين هو اسـم احد اجداد بني امية ؛ وليس هذا الشخص هو الوحيد بهذا الاسم ، ففي كتب التراجم (١) وغيرهـا أشخاص آخرون تسموا به ايضاً . فمن أين اتت هذه التسمية التي لا يعقل ان تكون عبثاً.

إننا لا نستطيع الاجابة إجابة شافية سلبية او ايجابية ، لا سيما ولم نطلع على أية رواية تفيد انه كان للشمس والقمر عبادة ما في بيئة النبي (ص) . ولكننا نقول إن ورود آية في القرآن تنهى عن السجود لهما يوجه الخطاب فيها الى مخاطب قريب بصيغة الأمر ، وأهل بيئة النبي (ص) اول المخاطبين بهـا ، وشيوع تسمية « عبد شمس » في هذه البيئة لا يمكن ان يكون عبثاً . ولذلك فنحن نميـل الى القول انه كان للشمس والقمر في نفوس أهل هذه البيئة شيء من التعظيم والرهبة ، ومن المحتمل انهم كانوا يؤدون لهما طقساً من الطقوس التعبدية .

(١) اقرأ أسد الغابة ج ع ص ٩٧ و ١١١ مثلاً

وإذا ما تجاوزنا هذه البيئة في هذا الموضوع فهناك نصوص وروايات تسوغ القول باسلوب اقوى واوضح بالنسبة للقديم والحديث قبل البعثة .

اما القديم ففي القرآن آية عن سبأ في عهد ملكتها بلقيس (١) جاء فيها :

«وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم ...

النمل ٢٤

فالآية تقرر عبادة حقيقية للشمس في بلاد سبأ في الزمن القديم. ولا شك في أن أهل بيئة النبي (ص) وعصره كانوا يتناقلون ذلك فيما يتناقلونه من أخبار أهل الجزيرة وغيرهم .

واما الحديث فان ابن ساعد ذكر في طبقاته (٢) أن كنانة كانت تعبد القمر وتيماً تعبد الذبران وكلباً تعبد الشعرى . وفي القرآن آية ذكر فيها هذا النجم الآخير وهي هذه :

« وأنه هو رب الشعرى » ... ٤٩

ومن غير المستبعد ان يكون اختصاص هذا النجم هنا واختصاص الشمس والقمر في آية فصلت متصلين بقصد التنديد بعبادة كائنات هي من خلق الله كما احتوته الآيات . ولقد تواترت أخبار عبدة الكواكب في العراق الذين لا يزال بقاياهم إلى الآن يسمون بالصبه ، وإن كنا نشك في كونهم عرباً . ومهما يكن من أمر فالذي نرجحه أن يكون السجود المذكور في الآية والعبادة المروية من قبيل طقوس تعبدية إشراكية وحسب .

— ٣ —

واما المجوسية التي هي عبادة النار حسب العرف العام والمتواتر فأنه لا يمكن أن يقال فيها شيء في نطاق القرآن غير أنها كانت من الاديان المعروفة في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ لأنه لم يرد في القرآن عنها صراحة او ضمناً غير آية الحج التي نقلناها آنفاً . ولما كان من المعروف انها كانت الدين العام في بلاد الفرس في ذلك العصر

(٢) القرآن لم يذكر أسم بلقيس بصراحة . والأسم من المتناقلات العربية.

(٣) ص ٤٣

وان هذه البلاد كانت من جملة البلاد التي كان يتردد عليها العرب وتجارهم من انحاء الجزيرة والحجاز ، وان حكام بلاد اليمن في عصر النبي (ص) كانوا فرساً فمن الطبيعي ان تكون هذه الديانة معروفة في عصر النبي (ص) وبيئته . والمجوسية ليس لها جذر عربي ، وهذا ما يجعلنا نرجح انها معربة للدلالة على هذه الديانة .

وسكوت القرآن عن ذكر هذه الديانة عدا ذكرها بين الأديان المعروفة في آية واحدة يسوغ القول بأنها لم يكن لها وجود في بيئة النبي (ص) الخاصة . ولا نذكر اننا قرأنا شيئاً ما ينقض هذا القول . فاذا كان في الحجاز افراد من الفرس مستوطنون أتوا من اليمن او من أطراف العراق وحافظوا على ديانتهم القومية هذه فيكون هذا نادراً وغير ملموس .

وسكوت القرآن هذا يجعل الكلام عن مدى انتشار هذه الديانة في غير بيئة النبي (ص) الخاصة من البيئات العربية في نطاقه متعذراً بطبيعة الحال . غير اننا إذا تجاوزنا هذا النطاق فان من الممكن ان يقال إن المعقول والمحتمل ان يكون الفرس الذين غزوا بلاد اليمن وحكموها في العصر السابق لعصر النبي (ص) وهو حادث بلغ حد اليقين في صحته قد اقاموا عبادتهم القومية فيها وأن يكونوا قد حاولوا حمل الناس عليها ، وأن يكون بعض العرب تابعهم فيها واقتبسها منهم (١) ؛ كذلك فان من المعقول والمحتمل ان يكون بعض العرب المستوطنين العراق وسواحل خليج البصره قد اقتبسوا ايضاً عبادة النار من الفرس الذين كانوا أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الربوع . ولقد جاء في بعض الكتب الموثوقة (٢) ما يفيد أن قبائل عربية في هجر والبحرين وعمان كانت تدين بالمجوسية ، وأن قواد الفتح قبلوا منها الجزية وابقوها على دينها ؛ بل وتذكر ان هذا مما كان مثله في حياة النبي (ص) .

ولقد ذكر ابن هشام (٣) رواية في سياق انتشار اليهودية في اليمن على يد

---

(١) ذكر ابن ساعد في طبقات الأمم ان بعض القبائل الحميرية في اليمن كانت تعبد النار .

(٢) كتاب الأموال ص ٣٢٠ و ٣٢٣ . اقرأ ايضاً كتاب الخراج لأبي يوسف .

(٣) ج ١ ص ٢٥

بعض اخبارها جاء فيها انه كان في اليمن كهف يخرج منه حيناً بعد آخر لهيب ازرق مرعب له زفير قوى ، وكان الناس يذهبون للاحتكام عند هذا الكهف ، فليس من المستبعد إذا صحت الرواية ان يكون بعض اهل اليمن قد اتّخذوا هذه الظاهرة الطبيعية التي ظنوها خارقة وخافوها او اعتبروها رمزاً الآلهة وعبدوها .

— ٥ —

والآن نأتي إلى ذكر ما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من طقوس تعبدية وتقاليد وعادات ذات صبغة دينية .

فاولاً الصلاة :

لقد اشير في اكثر فصول هذا الباب إلى عبادة المشركين لشركائهم وقيامهم نحوهم بواجبات تعبدية ، فمن الطبيعي ان يرد سؤال عن الكيفية التي كان العرب يؤدون بها هذه العبادة .

إن اهم مظاهر العبادة عند اصحاب الاديان هي « الصلاة » ؛ وقد ذكرت في القرآن كثيراً . ذكرت في صدد ما يجب على المسلمين من واجبات تعبدية نحو الله كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . البقرة ٢٣٨

٢ — فأذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فأذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ... النساء ١٠٣

٣ — هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ... النمل ٣

وذكرت في صدد الاشارة الى تعبد الانبياء وأهل الكتاب كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ... البقرة ٤٢—٤٣

(٢) هذه الآيات في سياق الخطاب اليهود .

٢ — فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بحيى [1]... آل عمران ٣٩

٣ — رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ... ابراهيم ٤٠

وذكرت في صدد التنديد بالمشركين الكفار العرب الذين لايصلون لله كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ... المدثر ٤٣—٤٤

٢ — فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى ... القيامة ٣١—٣٢

إلى جانب ذلك ذكرت في صدد الأشارة إلى صلاة المشركين عند الكعبة كما ترى في الآية التالية :

«وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءوتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. الأنفال ٣٥

وقد قال المفسرون عن المكاء أنه التصفير وعن التصدية انها التصفيق .

ومهما يكن من أمر فالآيات بصورة عامة وآية الأنفال بصورة خاصة تفيدنا :

١) ان كلمة الصلاة كانت تستعمل قبل البعثة للتعبير عن طقس تعبدي اوديني، وليس كما يقرره بعضهم انها كانت تعني الدعاء فقط ثم خصصت في الأسلام على الاشكال المعروفة التي يؤدى بها المسلمون عباداتهم اليومية ؛ وكثرة ورود كلمة « الصلاة » في القرآن للتعبير عن اسلوب القيام بالواجبات التعبدية وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة أي في الآيات التي وردت في صدد عبادة الأنبياء وأهل الكتاب وفي صدد المشركين دليل حاسم على ذلك الاستعمال ؛ولانني بهذا أن تكون الكلمة تعني في أصلها البعيد أو تعني فيما تعنيه الدعاء والرحمة والبركة لا سيما وقد جاءت في القرآن بهذه المعاني كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ... البقرة ١٥٧

٢ — ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ... التوبه ٩٩

---

(١) المقصود هو زكريا (ص) .

٣ — إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ... الأحزاب ٥٦

٢) إن العرب كانوا يقوموا ببعض العبادات لآلهتهم او عند الكعبة على طقوس وأشكال معينة وكانت عبادتهم هذه تسمى « صلاة » .

ولقد ذكرت آية الأنفال ٣٥ أن صلاتهم عند البيت لم تكن الا مكاء وتصدية، فيصح أن يقرر أن هذا المكاء والتصدية هما حركات وأصوات صلاتهم الطقسية ، مع التنبيه على اننا لا نستطيع ان نقرر بجزم شيئاً عن مداها بالرغم عن مما قاله المفسرون انها نعنيان التصفير والتصفيق .

— ٦ —

هذا من حيث الهيئة العامة او المظهر للعبادة . أما من حيث الشكل والحركات التعبدية فمعلوم ان هناك حركات وحالات غالبة للصلاة وهي « القيام » و « والركوع » و « السجود » . ولقد وردت الكلمتان الأخيرتان ومشتقاتها في آيات كثيرة في صدد الصلاة والتعبد لله كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ... البقرة ١٢٥

٢ — يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ... آل عمران ٤٣

٣ — قل آمنوا به أو لاتؤمنوا إن الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون الاذقان سجداً ... الاسراء ١٠٧

٤ — يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ... الحج ٧٧

٥ — لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ... فصلت ٣٧

٦ — وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون ... المرسلات ٤٨

ولقد ذكرت حالة القيام في آيات عديدة ايضاً وإن كانت اقل من آيات السجود والركوع كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا

أسلحتهم فأذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ... النساء ١٠٢

٢ — وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ... الحج ٢٦

ونتبه على أن ماقلناه من قله آيات حالة القيام إنما هو بصدد مايعنيه القيام من الحالة التي هي ركن من أركان الصلاة ؛ وإلا فأن الأمر بأقامة الصلاة قد لازم اكثر الاوامر بالصلاة ؛ غير ان هذا الاطلاق يغني المبادرة الى الصلاة والدخول فيها أكثر مايغني تلك الحالة الخاصة .

ومما يجدر بالتنبيه ان الآيات التي ذكر فيها القيام والركوع والسجود ليست جميعها في صدد الأمر بأقامة أركان الصلاة للمسلمين وان منها ماله صلة بقبل البعثة، سواء في صدد امر الله لابراهيم (ص) بتهيئة البيت للقائمين وللركع السجود او في صدد الكلام عن اليهود أو المشركين . ولقد ذكرت الحالات الثلاث في آية الحج مجتمعة ، حيث يستلهم منها ان القيام والركوع والسجود حالات تعبدية في الكعبة أو في فنائها أو بالاحرى من طقوس وتقاليد التعبد عندها كالطواف الذي ذكر في نفس الآية أيضاً ؛ ويضاف الى هذا ان الكلمات الثلاث لابد من أن تكون مفهومة المدى عند السامعين قبل نزول القرآن الذي نزل بلسان القوم .

ولهذا كله فان من السائغ القول بشيء من الجزم ان الحالات الثلاث كمظهر من مظاهر التعبد وحالات الصلاة ليست مما هو غريب عن العرب قبل البعثة ، بل وانها مما كانوا يقومون بها عند الكعبة . وقد أشرنا في مناسبة سابقة الى رواية ذكرت ان زيد ابن عمرو بن نفيل الذي كان من الموحدين المتعبدين على ملة ابراهيم كان يسجد أمام الكعبة . وينبه بصورة خاصة على أن بعض السور والآيات التي ذكرت فيها حالات السجود والركوع مما نزل مبكراً في مكة ، ولهذا معناه في تقوية الاستدلال كما لايخفى .

هذا وليس في القرآن مايساعد على قول شيء في صدد قيام العرب قبل الاسلام بأستعداد تطهري مابين يدي تعبداتهم كالوضوء وإزالة الجنابة كما أننا لم نطلع على روايات تساعد على قول شيء فيه، ولهذا لم نر محلاً لأفراد بحث خاص بذلك .

ثانياً الصيام :

مما قيل في صدد معنى الكلمة أنه الامساك وانها صارت اصطلاحاً يطلق على الصيام التعبدي في التشريع الاسلامي . غير أن نص فرضه في القرآن يدل على انه كان مفهوماً على هذا الوجه قبل نزول القرآن ، وان أهل الكتاب كانوا يمارسون نوعاً من الصيام كعبادة دينية كما ترى في الآية التالية :

« ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ... البقرة ١٨٣

ولا نستبعد ان يكون العرب صاروا يطلقون الكلمة على تلك العبادة بتأثير معرفتهم ممارسة اهل الكتاب لها .

والسؤال الذي يورد هو ماإذا كانوا مارسوا نوعاً من الصيام كعبادة دينية قبل البعثة؟ ونقول إن الاجابة على هذا السؤال نفياً أو اثباتاً في نطاق القرآن متعذرة ، لانه ليس فيه مايساعد على ذلك كما هو الشأن في الصلاة وحالاتها ؛ فاذا ماتجاوزنا هذا النطاق فاننا نقول ان هناك بعض روايات ذكرت ممارستهم له ؛ حيث روى الخازن حديثاً عن عائشة (رضي) مفاده أن قريشاً كانت تصوم في الجاهلية يوم عاشوراء اي اليوم العاشر من المحرم ، وأنه كان يوم تجديد ستر الكعبة ، وأن النبي (ص) كان يصومه كذلك قبل بعثته .

وليس في الرواية مايمكن الاستناد اليه في معرفة مدى هذا الصوم العربي قبل البعثة . غير أن المفسرين ذكروا في صدد تفسير الآية التالية من آيات الصوم :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولاتباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ... البقرة ١٨٧

إن هذه الآية نزلت بعد نزول آيات الصوم الاولى بمدة ما وان المسلمين كانوا يتمتعون بحالة الافطار في الليل الى ان يصلوا صلاة العشاء ويناموا ، وحينئذ

يصبحون في حالة الصوم ولو لم يكن قد أسفر الفجر ، وان بعضهم قد خالف ذلك فأتى زوجته ولما أخبر النبي (ص) استنكر ذلك منه ولكن ثم لم تلبث أن نزلت الآية بالتخفيف. فمضمون الآية من جهة وهذه الرواية المتسقة معها من جهة اخرى يلهمان ان النبي (ص) حدد حالة الصوم والافطار باجتهاده ثم نزلت الآية بتحديد آخر هو الذي صار شرعاً . ومن المعروف أن اليهود حينما يصومون يصومون اربعاً وعشرين ساعة إلا قليلاً ؛ ومن المحتمل أن يكون النبي (ص) والورعون من العرب حينما كانوا يصومون قبل البعثة كانوا يصومون في نطاق هذا الحد ، وأن هذا الحد مع بعض التعديل بقي حينما فرض صوم رمضان في الاسلام الى أن عدلته الآية وجعلته من الفجر الى الغروب .

— ٨ —

ثالثاً الأعتكاف :

وهذا البحث يتناول أمرين : الأعتكاف عند الكعبة مطلقاً ، والأعتكاف في شهر رمضان. ففي صدد الأول ذكر « العاكفون » في آية البقرة (١٢٥) التي نقلناها قبل قليل مع القائمين والركع السجود . وإذا كان من الممكن ان يقال إن العكوف هو الاستقرار والاقامة مطلقاً ايضاً لا سيما وهذا المعنى هو المقصود في احدى آيات سورة الحج :

«الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ... ٢٥

فان ذكره في آية البقرة جاء مع تعبيرات تعبدية وطقسية أي الطائفين والركع السجود مما يمكن ان يساعد على ترجيح كونه فيها تعبيراً تعبدياً طقسياً ايضاً — وهو ما تلهمه روح الآية — وأن يلهم ان الاعتكاف التعبدي كان يعد من طقوس زيارة الكعبة أو من مظاهر وحالات احترامها والتعبد عندها .

ولقد روى البخاري حديثاً مفاده ان عمر بن الخطاب (رض) اخبر النبي (ص) انه نذر في الجاهلية ان يعتكف يوماً في الكعبة ، وأن النبي (ص) حثه على الوفاء بنذره . وهذا الخبر يستأنس به على صواب استلهامنا من الآية اولاً ، وعلى ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة كانوا يمارسون هذا النوع من العبادة أو الرياضة الروحية ثانياً.

أما الثاني فأنه ذكر في القرآن في سياق تشريع الصوم الاسلامي كما ترى في هذه البقرة :

« ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد ... البقرة ١٨٧

وقد أثر بالتواتر عن العهد النبوي ان النبي (ص) وبعض اصحابه كانوا يعتكفون اياماً من رمضان في المسجد فلا يخرجون منه فيها إلا للضرورة ؛ ثم صار هذا الاعتكاف في رمضان سنة يقوم بها الورعون .

وقد ذكرنا هذا مع انه لا علاقة له بما قبل البعثة لنصله بالرواية(١) المتواترة التي بلغت حد اليقين بأن النبي (ص) كان قبيل بعثته يعتكف في غار حراء في شهر رمضان، وان اول وحي رباني بالقرآن قد نزل عليه في اثناء هذا الاعتكاف . والقرآن يؤيد اولية نزول القرآن على النبي (ص) في رمضان في هذه الآية (٢) : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ... ١٨٥، ولنصله كذلك برواية (٣) اخرى ذكرت ان الورعين من قريش كانوا يعتكفون في بعض إيام هذا الشهر؛ فهذا وذاك يمكن ان يسوغا القول ان الاعتكاف في رمضان كعبادة دينية او رياضية روحية مما كان ممارساً في بيئة النبي (ص) قبل البعثة .

وهذا القول يستتبع القول بأنه كان لشهر رمضان مزية دينية ما قبل البعثة ضاعت علينا معرفة كنهها ومداها ؛ فلم يكن النبي (ص) ليختاره لاعتكافاته ورياضته الروحية قبل بعثته ، ولم يكن الورعون من قريش ليختاروه كذلك للاعتكاف التعبدي او الرياضة الروحية لو لم تكن له هذه المزية التي أيدت باختصاص رمضان باعظم حادث اسلامي وهو نزول الوحي على النبي (ص) فيه بالقرآن لاول مرة واعلانه بنبوته ، ثم بالصيام والذكر والاعتكاف في المساجد فيه .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ وابن سعد ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٨ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

(٣) ان بعضهم ابعد في قوله ان الله إنما انزل القرآن في شهر رمضان من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وان الآية قد عنت ذلك ؛ والجمهور على ماذكرناه كما ان هذا هو المتسق مع ملهمات القرآن والمنطق الحق .

رابعاً اجتماعات يوم الجمعة :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به صراحة على ان هذه الاجتماعات كانت موجودة قبل البعثة . غير ان في اسم اليوم ، والاسلوب الذي جاءت به الآيات الحاثة على الاهتمام لصلاة الجمعة ، وبعض روايات في صدد هذه الصلاة قبل نزول الآيات وفي صدد اجتماعات الجمعة قبل البعثة ما يسوغ ادخال الموضوع في عداد المواضيع التي نحن بسبيل سردها .

فمما لا محل للشك فيه ان اسم اليوم سابق للبعثة النبوية ، وفي التسمية مفهوم لاينكر بأن هذا يوم اجتماع او تجمع او جمع ، وبأنه حينما سمي اليوم به قد توخي الدلالة به على حالة تجمعية ما . وقد ايدت الروايات (١) ذلك حيث ذكرت ان يوم الجمعة كان يسمى يوم « العروبة (٢) وان كعباً بن لؤى قدسن اجتماعات عامة تقوم في هذا اليوم وبدل اسمه باسم الجمعة ؛ كما ذكرت ان أهل يثرب رأوا ان يتخذوا لهم يوماً يجتمعون فيه كما لليهود يوم السبت والنصارى يوم الاحد فاختاروا يوم الجمعة ؛ ويتبادر لنا ان تسمية اليوم وما توخي فيها أعم من نطاق يثرب ؛ كما لا نرى تداخلا في الروايتين ولا بعداً عن المعقول ؛ فقد تكون اجتماعات يوم الجمعة قد أهملت او قلت العناية بها فرأى اليثربيون احياءها أسوة باليهود والنصارى .

واسلوب آيات الجمعة يلهم بقوة بل وبجزم ان صلاة الجمعة كانت تقام قبل نزولها كما ترى فيها :

«يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون. فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا كثيراً لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا إليها

(١) اقرأ تفسير الخازن والبيضاوي لسورة الجمعة مثلاً .

(٢) كانت إيام الاسبوع تسمى هكذا : السبت شيار والاحد اول والاثنين اهون والثلاثاء جبار والاربعاء دبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة : المزهر ج ١ ص ١٠٨

وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين . . .
الجمعة ٩ — ١١

فالايات ليست في صدد تشريع بدئي وإنما هي في صدد الحث على ترك البيع والمبادره إلى الاجابة لنداء صلاة الجمعة ، ثم في صدد التنديد بالذين يتركون النبي قائماً في المسجد لها اذا ما رأوا لهواً او تجارة . وعدم ذكر وقت الصلاة مع ان اوقات الصلاة اليومية خمسة دليل آخر حيث يدل على ان الكلام مصروف الى الصلاة المشهورة المعروفة من ذلك اليوم . وقد روى المفسرون ان اكثر المجتمعين لصلاة الجمعة في يوم ما انفضوا أو خرجوا من المسجد حينما سمعوا خبر ورود قافلة تجارية او سمعوا طبل صاحبها ؛ وان النبي (ص) غضب من ذلك قال « والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً » . وقد روت روايات السيرة ان النبي (ص) اقام صلاة الجمعة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة وادركته الصلاة قبل دخوله قلب المدينة ؛ كما روى ان أسعد بن زراره احد زعماء يثرب المسلمين كان يصلي صلاة الجمعة بمن أسلم في يثرب قبل الهجرة. والتعبير هو « كان يجمع » . وترتيب نزول سورة الجمعة متأخر جداً ؛ وفي هذا قرينة مؤيدة اخرى لاقامة النبي (ص) والمسلمين صلاة الجمعة قبل نزول الآيات بمدة طويلة ، فليس من التجوز بناء على ذلك ان يقال إن عناية النبي (ص) بصلاة يوم الجمعة وجمع المسلمين لها ، وما كان من إقامة مسلمي يثرب لها قبل الهجرة النبوية انما كان استمراراً او احياء لعادة قديمة وحكيمة . وليس مثل هذا نادراً في التشريعات القرآنية والسنن النبوية كما لا يخفى .

وليس لدينا ما نستطيع ان نعرف به ما هية تلك الاجتماعات التي كانت تقوم في ايام الجمع قبل البعثة والتي ابدعت ابداعاً وبدل اسم اليوم من اجلها اهتماماً وحفاوة ؛ غير اننا نميل الى القول بانها كانت ذات صبغة دينية او تعبدية على نحو ما . فان شهود هذه الاجتماعات العامة ما كان ليفرض ويستجاب الا بصبغها بصبغة دينية قياساً على ما كان عند العرب من تقاليد متنوعة . ولا نشك في انه كان لهذه البدعة اثر في تقوية حركة النهضة القومية والفكرية في تيسير اجتماع الناس ببعضهم مرة في

الاسبوع اجتماعاً حفياً ، بل لعل هذه الغاية كانت من الغايات التي توخيت في سنها وابداعها . وإذا كان من المحتمل ان تكون الفكرة مقتبسة في اصلها من أهل الكتاب فالاستقلال العربي بارز فيها كما هو واضح .

— ١٠ —

خامساً تقريب الاولاد للآلهة:

كان من عادات العرب في عصر النبي (ص) وبيئته المصبوغة بالصبغة الدينية انه اذا حزب احدهم امر خطير او استعصى عليه مطلب جليل او تمنى حصوله ان ينذر ذبح ولده قربانا للآلهة إذا ما فرجت كربه او حققت مطلبه .

ويستلهم وجود هذه العادة من آية في سورة الأنعام هي :

«وكذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤُهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ... الأنعام ١٣٧

وقد اشير اليها في آية اخرى من السورة نفسها في سياق تسفيه بعض التقاليد الجاهلية في التحريم والتحليل مما يصبغونه بصبغة دينية وهي :

«قدخسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم وحرموامارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ... الأنعام ١٤٠

وهذه العادة هي غير عادة قتل الاولاد ووأد البنات خشية الفقر والعار التي ذكرتها آيات أخرى وذكرت هذا السبب بصراحة، والتي تقلناها في الفصل الاول من الباب الثاني حينما ذكرنا هذه العادة في عداد العادات العائلية المتنوعة . وفي آية الأنعام(١٣٧) دلالة قوية على العادة التي نحن في صدد تقريرها وصبغتها الدينية، وهذه الآية تلهم في ما تلهمه ان هذه العادة من العادات الكثيرة الشيوع .

ولقد ذكرت كتب السيرة (١) قصة نذر عبد المطلب جد النبي (ص) ذبح أحد اولاده قربانا لله إذا رزق عشرة اولاد ، وما كان من محاولته الوفاء بنذره وذبح ابنه عبد الله والد النبي (ص) الذي اصابته القرعة بتفصيل طويل ومشهور ؛ مما يمكن ان يستأنس به على صحة الاستلهام بوجود العادة .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٤١ وما بعدها .

ولقد ورد في القرآن قصة رؤيا ابراهيم (ص) بذبح ابنه ومحاولته تنفيذ ما اعتبره الهاماً ربانياً وفداء الذبيح ؛ وذلك في آيات الصافات ١٠١ — ١٠٧ التي نقلناها في فصل الحج . وهذه القصة مما ورد في التوراة ايضاً ؛ ونرجح ان تكون مما عرفه العرب وتناقلوه من القصص حول ابراهيم (ص) وغيره من الانبياء ؛ وليس من المستبعد والحالة هذه ان تكون عادة تقريب الأبناء مستلهمة من هذه القصة . على ان هذه العادة غير نادرة عند الأمم الاخرى ، ولعل الأصل فيها نذر اعز شيء على نفس المرء لله في سبيل تحقيق مطلب من مطالبه العظيمة او شكراً على نعمة عظيمة.

— ١١ —

سادساً تقريب القرابين للآلهة :

وكان من عاداتهم المصبوغة بالصبغة الدينية ايضاً تقريب القرابين من الأنعام للآلهة.

ولقد ذكرنا في فصل الحج عادة تقريب القرابين واهداء الهدى في موسم الحج واقرار الاسلام لأصل الفكرة بعد جعلها لله عز وجل واعتبارها من الوسائل التي يقيم الناس بها أودهم .

غير ان الذي نريد ان نقوله هنا هو ان هذه العادة لم تكن قاصرة على الحج باعتبارها من اركانه فحسب ، بل كانت عادة عامة جارية في كل وقت ومكان ، تقرباً وزلفى ، وتحصيلاً لأمنية او شكراً على نعمة او وفاء بنذر . ولقد جاء في احدى الآيات اشارة إلى ما يذبح على النصب من الحيوانات وتحريم لأكلها وهي هذه :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ... المائدة ٣

فالاشارة الى مايذبح على النصب — الأوثان — مع احتواء الآية اشارة الى ما يهل لغير الله به — أي يذكر إسم غير الله عند ذبحه — يمكن أن تكون قرينة على أن المقصود منها ما كان يذبح قرباناً للآلهة كما أشرنا . وإطلاق التعبير يمكن أن يكون قرينة على عموم العادة وعموم أوقاتها . وهذا مما أيدته الروايات الكثيرة .

سابعاً : ذكر غير الله عند ذبح الذبائح .

وقد كان من عاداتهم اذا أرادوا ان يذبحوا للطعام ان يذكروا غير الله أو آلهتهم الاخرى مع الله عند ذبحها . والغالب انهم كانوا يقصدون التبرك . ولهذا عددنا هذه العادة في عداد العبادات المصبوغة بصبغة دينية .

وقد أشير الى هذه العادة في آيات متعددة في سياق تحريم أكل الذبائح التي يذكر غير الله عليها . وقد نقلنا احداها آنفاً (المائدة ٣) ونورد منها مايلي :

١ — انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . البقرة ١٧٣

٢ — قل لا أجد فيما أوحي الى محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ... الانعام ١٤٥

٣ — إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ... النحل ١١٥

على ان العرب كانوا الى هذا يأكلون مايموت حتف أنفه أو نتيجة لنطح أو وقذ أو سقوط أو خنق أو نهش سبع كما كانوا يذبحون ذبائحهم احياناً دون أن يذكروا شيئاً . وهذا مستلهم من آيات في سورة الأنعام تنهى عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه اطلاقاً وهي هذه :

١ — ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ... الانعام ١٢١

٢ — فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا مااضطررتم اليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ... الانعام ١١٨-١١٩

وقد احتوت كما هو واضح أمراً في الأكل مما ذكر اسم الله عليه واستنكاراً للامتناع أو التردد في ذلك . ويلهم هذا ان المسلمين في بدء الأمر — وسورة الانعام مما نزل مبكراً بعض الشيء — تحرجوا من أكل مايذكر اسم الله عليه واعتبروا أن الذبحة تصبح بذلك لله وأن أكلها يغدو حراماً عليهم على ما كانت عليه عاداتهم من عدم اكل القرابين التي تذبح لله أو الآلهة مما ذكرناه في فصل الحج ، فاقتضت

الحكمة هذا الاسلوب ثم اتبعت الآيتان بالآية ١٢١ التي جاءت حاسمة تحتوي تشريع عدم اكل أي ذبيحة لايذكر عليها اسم الله . ومع هذا فيبدو أن أثر العاده الجاهلية ظل قائماً بعض الشيء بالنسبة لاكل مايموت نطحاً أو وقذاً أو سقوطاً أو خنقاً أو نهشاً أو بصيد الجوارح فاقتضت الحكمة نزول آية المائدة (٣) التي شرطت لاكل الحيوانات في الحالات الخمس الاولى ان تذبح ويذكر اسم الله عليها إذا كان فيها رمق بعد حلول ماحل فيها من سبب الموت ،ونزول آية بعدها تشترط لاكل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعلمة أن يذكر اسم الله عند اطلاقها وهي هذه :

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ... المائدة ٤

— ١٣ —

ثامناً عادات متنوعة في التحليل والتحريم في الأنعام .

وفي القرآن آيات عديدة يستدل منها على أنه كان للعرب قبل البعثة في بيئة النبي (ص) عادات متنوعة في تحليل الأنعام وتحريمها عليها صبغة دينية .

فأولاً اشير في آية في سورة المائدة إلى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وهي:

«ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لايعقلون ... المائدة ١٠٣

وأشير في آية في سورة الأنعام الى تحريم أكل بعض الأنعام واستعمال ظهورها ولهذا صلة بما جاء في آية المائدة وهذه هي :

«وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرّمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ... الأنعام ١٣٨

وقد ذكر المفسرون وكتب السيرة روايات عديدة في صدد تفسير هذه التحريمات واخبارها ونرسم في مايلي صورة لاتخرج في جوهرها عما جاء في تلك الروايات على اختلافها :

١ — إنهم كانوا يشقون أذن الناقة التي تنتج خمسة بطون ويخلون سبيلها كأنما

هم يعتقونها شكراً للآلهة ، فلا يركبونها ولا يحملونها ولا يجزّون وبرها ولا يمنعونها من كلأ وماء ولا يذبحونها ويخصصون البانها للضيوف ويسمونها «البحيرة» اشتقاقاً من بحر بمعنى شق الاذن .

٢ — إنهم كانوا اذا مرض لهم مريض او عنت لهم أمنية او طال عليهم غائب نذروا ان يعتقوا ناقة من نياقهم يعينونها ، فاذا شفي المريض او تحققت الأمنيه او عاد الغائب « سابوا » الناقة المنذورة ، وأعفوها من الركوب والحمل والذبح وجز الوبر ولم يمنعوها من كلأ ولا ماء وسموها « السائبة » .

٣ — إنهم كانوا اذا ولدت الشاة انثى كانت لهم فلا يصح عليها ذبح ولا قربان، واذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وهو الذي يذبح ويقرب الآلهة ؛ فاذا ولدت ذكراً وأنثى في بطن واحد كانت حالة الذكر كحالة الأنثى لايصح عليه ذبح ولا قربان وقالوا إن الاخت وصلت أخاها أي صانت دمه وسموها « الوصيلة » .

٤ — إنهم كانوا اذا أنتج الفحل عشرة بطون أعتقوه للآلهة وحرموا ظهره ولحمه وتركوه يرعى ويرد الماء كما يشاء ولا يمنعه من ذلك مانع وسموه « حامياً » أي انه حمى نفسه .

وآية المائدة صريحة بأنهم كانوا يفعلون ذلك كتقليد ديني تحقيقاً لرغبة الآلهة وأوامرها المتوارثة فسفهت عملهم ، وقررت إنما يفترون في ذلك على الله .

ثانياً في آية في سورة الأنعام أشير الى ما كانوا يخصصونه من الأنصبة لله ولشركائهم في زروعهم وأنعامهم وهي :

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون...
الأنعام ١٣٦

وظاهر من الآية انهم كانوا يحابون بين الله وشركائهم وبكلمة ثانية كانوا يرون شركاءهم أشد قرباً اليهم واختصاصاً بهم . وقد جاء في بعض كتب التفسير(١) في صدد تفسير الآية انهم كانوا يصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف والفقراء وينفقون

(١) الخازن والنسفي والبيضاوي في تفسير الآية :

مايجعلونه للشركاء على الأوثان وخدمتها ، فان سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غني عنه ، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان في ما جعلوه لله ردوه اليه وقالوا إنها في حاجة اليه ، وكان اذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا كان الهالك او الناقص من نصيب شركائهم عوضوه مما جعلوه لله ؛ وكانوا كذلك اذا رأوا ماجعلوه لله زاكياً ناميا رجعوا فجعلوه لشركائهم وبادلوا بينه وبين ما كان للشركاء وقالوا إن الله غني عنه .

ثالثاً وفي سورة الأنعام آية أشير فيها الى ما كان من اختصاصهم الذكور دون النساء بما في بطون الأنعام وهي هذه :

وقالوا مافي بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ... الأنعام ١٣٩

وقد ذكر المفسرون أن هذا التحريم في صدد الأكل . والذي يتبادر لنا انهم كانوا ينذرون تخصيص ما في بطون الانعام الذكور قبل ولادتها فاذا ولدت حياً اعتبروا ان تحقيق النذر قد وقع كاعلان لرضاء الله عنه فحرموا اكل المولود على الاناث ، واذا ولدت ميتاً اعتبروا أن الله لم يرض عن نذرهم فأكلوا الميتة هم والنساء معاً . وكذلك يخيل لنا أن هذا كان وسيلة من وسائل حرمان المرأة من حقوقها المادية في ما بلد حياً بطريق النذر والتحريم المصبوغة بالصبغة الدينية .

رابعاً وفي سورة الأنعام ايضاً آيات أشير فيها إلى تحريم ما في بطون الأنعام قبل الولادة تحكماً وهي :

«ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آ الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين. ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آ الذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... ١٤٣ — ١٤٤

وظاهر من هذه الآيات(١) أنهم كانوا ينذرون تحريم اكل ما في بطون الانعام

(١) اقرأ تفسيرها في تفسيرنا « التفسير القويم »

من ذكور او أناث قبل الولادة تحكما ، ويصبغون نذرهم هذا بصبغة دينية . ويخيل لنا أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى ذكور نذروا جعل ما يولد ذكراً لله فلا يذبحونه إلا له ويحرمون على أنفسهم اكله ، وإذا احتاجوا الى اناث فعلوا مثل ذلك تقرباً لله حتى يجعل الحمل كما يريدون ؛ فاذا جاء الحمل كما نذروا اعتبروا ذلك اعلانا من الله عن رضائه عن نذرهم .

خامساً وفي آية الأنعام ١٣٨ التي نقلناها قبل اشارة إلى نوع آخر من النذور العربية قبل الاسلام حيث كانوا يخصون انعاماً او زروعاً بعينها لاناس باعيانهم ويعلنون انها نذر محجور عليهم لا يحل لغيرهم اكلها .

ونضيف إلى ما شرحناه من هذه الآيات ان في الآيات التي جاءت بعد الآيتين ١٤٣ — ١٤٤ من سورة الانعام وكذلك في بعض آيات النحل تكملة لهذه الصور ؛ وإليك اولاً الآيات :

١ — قل لا أجد في ما أوحي الى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فأنه رجس أوفسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم ، وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما او الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون . فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن انتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ... الأنعام ١٤٥ — ١٥٠

٢ — ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا

فهذه الآيات يمكن ان تلهم اولا ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أنهم في ما يحلونه ويحرمونه إنما هم منفذون لمشيئة الله واوامره ، وقد جادلوا النبي (ص) في ذلك قائلين ان الله لو لم يكن آمراً بما يفعلون او راضياً عنه لكان صرفهم وصرف آباءهم عنه . وثانياً انهم كانوا يبررون عملهم بما عند اليهود من تحليل وتحريم في بعض انواع الطعام وللاحوم والشحوم . فرد عليهم القرآن بان الله لم يحرم الا ما كان نجساً كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير او فسقاً وشركاً وهو المذبوح لغير الله او المذكور عليه غير الله ؛ وان ما حرم على اليهود إنما حرم عقوبة وانتقاماً من الله على بغيهم وليس لأنه نجس او فسق في اصله . ومكية الآيات تقوى الاستلهام بان هذا الحجاج والاحتجاج باليهود كان بين العرب والنبي (ص) .

— ١٤ —

تاسعاً العادات والهواجس النفسانية .

وفي القرآن آيات فيها إشارات إلى عادات او هواجس نفسانية مصبوغة بصبغة دينية ما كانت عند العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة .

منها الاستقسام بالأزلام . فقد أشير إلى ذلك في آيتين هما :

١ — وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ... المائدة ٣

٢ — يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ... المائدة ٩٠

وموضوع البحث هنا هو ما احتوته الآية الثانية ، لاننا رجحنا في مناسبة سابقة ان العبارة في الآية الاولى في صدد تحريم ما يذبح على سبيل الميسر وشرحنا هذه العادة في الباب الاول .

والاستقسام هو طلب معرفة المقسوم للمرء والاستخارة في أمر من الامور . والازلام هي السهام التي كانت تستعمل في الاستخارة .

وقد جاء في تفسير الخازن في سياق تفسير آية المائدة الاولى انه كان لهم سبع قداح مكتوب على احدها « امرني ربي » وعلى ثانيها « نهاني ربي » وعلى ثالثها

« منكم » وعلى رابعها « ملصق » وعلى خامسها « من غيركم » وعلى سادسها « العقل » وسابعها غفل لا كتابة عليه . فكانوا إذا ارادوا سفراً او تجارة ، أو اختلفوا في نسب او قتيل او حمل دية او غير ذلك من الامور المماثلة جاؤوا إلى هبل وكان اعظم اصنام قريش . واعطوا مأة درهم الى صاحب القداح فاجالها اي خلطها ثم استخرج واحداً منها فان خرج « امرني ربي » فعلوا الأمر الذي استخاروا فيه وان خرج « نهاني ربي » لم يفعلوه . وان كانت الاستخارة في نسب وخرج « منكم » الحقوه بهم وإن خرج « من غيركم » اخرجوه منهم ، وان خرج « ملصق » كان النسب المدعي به افتراء ، وان كانت الاستخارة في العقل وخرج « العقل » تحملوه . وهذا الذي ذكره الخازن مؤيد بروايات قديمة على اختلاف في التفصيل لا يخرج في جوهره عما لخصناه . وواضح من هذا ان هذه العادة ذات صبغة دينية ؛ إذ كانوا يحيلون الأزلام عند أصنامهم كأنهم يستشيرونها ويستخيرونها ، ويطلبون منها بيان ما هو مقسوم لهم وفيه الخير والبركة ، وحينما تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة او رأيهم وقسمهم ، وهذا سبب التشديد في حظر هذه العادة وسلكها في سلك الشرك كما هو المتبادر .

— ١٥ —

ومنها الطيرة او التطير . ولقد ذكر التطير في بضع آيات في سياق قصص الأنبياء كما نرى في ما يلي :

١ — فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ... الأعراف ١٣١

٢ — قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون . النمل ٤٧

٣ — قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكن وليمسنكم منا عذاب اليم . ياسين ١٨

والآيات وان لم تكن في صدد وجود هذه الهاجسة عند العرب فان ورود الكلمة الدالة عليها من جهة وروحها من جهة اخرى يدلان على ان مفهومها كان معروفاً عندهم . ومع ذلك فقد ورد في القرآن آيه تحكي اقوال بعض المنافقين للنبي (ص) وتحتوي هذا المعنى وهي :

«وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ...» النساء ٧٨

وقد قال المفسرون (١) في تفسير آيتي الأعراف والنمل أن الطيرة او التطير مشتق من « الطائر » وانها تعني في الآيتين التشاؤم ، وان من عادة العرب أن يتفاءلوا ويتشاءموا من مرور الطائر ازاءهم ، فاذا خرجوا لسفر او عزموا على أمر ومر طائر عن يمينهم تفاءلوا وأتموا سفرهم او عزمهم ويسمونه « سانحاً » ؛ وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وعدلوا عن سفرهم او عزمهم ويسمونه « بارحاً » . ولعلهم كانوا يعتبرون مرور الطائر اعلاناً من الآلهة لرضائهم او عدمه عما اعتزموا .

وفي العقد الفريد (٢) حديث مروى عن النبي (ص) جاء فيه من رأى من الطير شيئاً يكرهه فقال اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك لم يضره» وفي تفسير الخازن (٣) حديث نبوي آخر جاء فيه « العيافة والطيرة والطرق (٤) من الجبت » والجبت هو الشرك . فهذان الحديثان يؤيدان ما قلناه من وجود هذه العادة عند العرب قبل البعثة ؛ فضلا عن ما ورد في الكتب العربية من روايات واخبار عنها .

— ١٦ —

ومنها التعاويذ والرقى ، والطب الروحاني . فقد ورد في القرآن بضع آيات أمرت بالاستعاذة من شر الشيطان وهمزاته والحساد وظلمات الليل والنفاثات في العقد كما ترى فيما يلي :

١ — وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون. المؤمنون ٩٧—٩٨

٢ — قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب .

---

(١) الطبرسي والزمخشري .

(٢) ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) في سياق تفسير آيتي النساء ٦٠ و ٧٦ .

(٤) العيافة = نوع من كشف الغيب . الطرق = مثله .

ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ... سورة الفلق

٣ — قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس ... سورة الناس

وهذه الآيات وإن لم تكن هي الاخرى في صدد تقرير ماجعلناه عنواناً للفقرة قبل البعثة فانها تلهم ان مراميها بعث الطمأنينة في النفس بعد استعاذة المستعيذ بالله من الشرور الخفية ؛ وهذا يمت الى ذلك العنوان كما هو واضح ، ويسوغ القول بان أهل بيئة النبي (ص) الذين كانوا أول من سمع الآيات ليسوا بعيدين عن مفهومها ودلالتها .

وفي سورة التوبة آية تشير الى ماتحدثه صلوات النبي (ص) أي دعواته من سكينة نفسية وهي :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم ... التوبة ١٠٣

وهذا يمت الى العنوان بشيء من السبب كما هو المتبادر .

على أنه يوجد في كتب التفسير وغيرها مايمكن الاستئناس به في تقوية القرائن القرآنية . ففي الطبرسي في تفسير سورة الفلق إنه أريد بالاستعاذة من شر الحاسد شر نفسه وشر عينه فأنه ربما أصاب بها فعاب وضر ، وانه قد جاء في حديث نبوي « أن العين حق » وان النبي (ص) كثيراً ما كان يعوذ الحسن والحسين (رض) بالمعوذتين ، وفيه كذلك صيغة رقية منسوبة الى جبريل ومروية عن عائشة وابن عباس (رضي) هذا نصها :

« باسم الله أرقيك . من كل شر يؤذيك . من حاسد وعين الله تعالى يشفيك »

وفي العقد الفريد [1] حديث نبوي مروي عن أنس بن مالك (رضي) جاء فيه أنه « من قال إذا أمسى واصبح اعوذ بكلمات الله التامات المباركات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماينزل من السماء ومن شر مايعرج فيها ومن شر ماذرأ في الأرض

(١) ج ٢ ص ١٥٥ وج ع ص ٢٩٤ — ٢٩٥ والحديث المروي في الجزء الثاني مروي في الجزء الرابع في قصة عن خالد بن الوليد (رضي) .

ومن شر مايخرج منها لم يضره شيء من الشياطين والهوام» .

وفي أسد الغابة (١) في ترجمة عمرو بن حبه الصحابي (رضي) انه كان يرقى من الحية وانه جاء الى النبي (ص) وسأله عن ذلك فقال له وما تقول ، فلما سمع منه قال لا بأس بهذه هذه مواثيق ؛ وانه جاءه رجل آخر من الأنصار فقال يارسول الله إني أرقى من العقرب فقال النبي (ص) من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل .

وفي مسند ابن أبي شيبة على ماجاء في العقد الفريد (٢) حديث نبوي جاء فيه « لارقية الا من عين او حمة والحمة السم » وكذلك في العقد (٣) خبر مفاده ان ابا بكر (رضي) دخل على عائشة (ص) وهي مريضة وعندها يهودية ترقيها فقال لها ارقيها بكتاب الله .

كذلك فان الأحاديث والأخبار الواردة في نفع الآيات والسور القرآنية في شفاء الأمراض وازالة قلق النفس واضطرابها وسكونها بسبب مايكون طرأ عليها من خوف وهياج في حالة حملها وتلاوتها والرقية بها كثيرة استفاضت في كتب التفسير والحديث ؛ فكل هذا يحتمل ان لم نقل يرجح ان يكون استمراراً لعادات كانت قبل البعثة . والمعقول أن الرقى والتعاويذ اذ ذاك كانت تمت بسبب الى الوثنية والارواح الخفية والجان حيث كان يعتقد بمسهم وبنفع الاستعاذة بهم ، فقلبها الاسلام الى الاستشفاء بالقرآن والاستعاذة بالله تعالى .

— ١٧ —

ومنها الأحلام وتعبيرها : فقد ورد في القرآن آيات عديدة حول ذلك . منها ماورد في صدد قصة ابراهيم (ص) وولده الذبيح كما ترى :

« فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين.

(١) ج ٤ ص ١٠١ وفي أسد الغابة كذلك ج ٤ ص ١٧٣ في ترجمة فاتك بن عمرو انه كان يرقى من العين وانه عرض رقيته على النبي (ص) فأذن له ودعا له بالبركة.

(٢) ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٣) ج ٤ ص ٢٩٥ .

وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين. الصافات ١٠٢-١٠٥

ومنها ماورد في قصة يوسف كما ترى :

١ — إذ قال يوسف لابيه يا أبت إني رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ... يوسف ٤

٢ — وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب يوسف ٦

٣ — ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ... يوسف ٣٦

٤ — ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ... يوسف ٤١

٥ — وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرأى تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ... يوسف ٤٣ — ٤٤

٦ — يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ... يوسف ٤٦ — ٤٩

٧ — ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ... يوسف ١٠٠

ومنها ماورد عن رؤيا النبي (ص) دخوله المسجد الحرام قبل الفتح كما ترى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون ... الفتح ٢٧

ومنها ماورد عن رؤيا النبي (ص) العدو في وقعة بدر كما ترى :

« إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ... الانفال ٤٣

فهذه الآيات تقرر حقيقة عامة ومعروفة في كل وقت ومكان ، وهي رؤية الناس الأحلام في منامهم وما يمكن أن تحدثه في النفوس احياناً كثيرة من هواجس تجعلهم يفكرون في تأويلها ، والرجوع الى من عندهم مواهب خاصة في تعبير الرؤيا . يتشدون عندهم طمأنينة النفس وراحة البال .

وطبيعي أن لا يكون العرب قبل البعثة بدْعاً في هذا. واسلوب الآيات التقريري يمكن ان يعد من ناحية نطاق الكتاب قرائن قرآنية على ما كان عند العرب قبل البعثة من مفهوم للأحلام واثرها في النفوس وتأويلها وصلة ذلك بالهواجس النفسانية؛ تمشياً مع الحقيقة ان ماورد في القرآن من عبارات ومصطلحات ومفهومات قد كان مما يدخل في نطاق مفهومات العرب قبل نزوله .

اما كتب الأخبار والسيرة ففيها الكثير عن الأحلام وما كانت تحدثه من قلق واضطراب في العرب قبل البعثة ولاسيما في نفوس العظماء ، وكيف كانوا يفزعون الى الكهان والعرّافين يقصون عليهم رؤاهم ، ويسألونهم تأويلها ، تشدداً للطمأنينة ودفعاً للهواجس والبلابل التي تتسلط عليهم منها. ومهما كان من أمر هذه الروايات بالذات فأنه لا يمكن المماراة في الصورة العامة التي تصورها وهي فزع العرب من الأحلام وقلقهم ورجوعهم الى الكهان والعرافين لتعبيرها طلباً للهدو والطمأنينة النفسية .ولقد وردت بعض الروايات التي تقص أن بعض الناس قبل البعثة كانوا يرون الرؤيا احياناً الهاماً إلهياً واجب التنفيذ كقصة عبد المطلب بحفر زمزم اولاً وبوفاء نذره بذبح ابنه ثانياً ؛ وهذه القصة تشبه اعتبار ابراهيم (ص) رؤياه الهاماً او أمراً ربانياً .

ويحسن التنبيه على نقطة مهمة في هذا الباب ، وهي مايلحظ من فرق بين لفظي «الرؤيا» و« الأحلام » حيث يمكن أن يلمس منه ان العرب كانوا يطلقون« الرؤيا » على ما يثير هواجس النفس وما يرونه في حاجة الى تعبير دون « الحلم » الذي يطلقونه على الرؤيا العادية المشوشة التي يرونها أضغاثاً ويسمونها بأضغاث الأحلام

كما جاء في آية سورة يوسف (٤٤) . ولعلهم كانوا يطلقون « الرؤيا » على ما يبقى واضح الاثر والمعالم في الذهن والنفس ، فيرون أنه لابد من أنه يمثل حقيقة من الحقائق المغيبة مما لا يكون عادة في جميع الرؤيا والاحلام .

وقد كان مناوئوا النبي (ص) ينعتون ما كان يخبر به من رؤية ملك الله واتصاله به والقاء القرآن عليه بأضغاث الاحلام كما جاء في آية سورة الانبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ... «٥» إيغالاً في التكذيب ووصف كون ما يراه هو من نوع الاحلام المشوشة المخلّطة .

— ١٨ —

ونريد أن نختم ابحاث هذا الباب بدرس ما كان في ذهن العرب قبل البعثة عن « النفس » و « الروح » ؛ فان هذين الموضوعين يتصلان بالعقائد اكثر منها بالعلوم والمعارف ؛ وخاصة في عهد ما قبل البعثة .

وسيكون عمادنا في هذا الدرس استعمال الكلمتين في القرآن وما يمكن ان تدلا عليه من دلالات ومدى ؛ تمشياً مع ماقررناه من ان مافي القرآن من دلالات الكلام والالفاظ ومصطلحاتها قد كان مفهوماً على الوجه الذي جاء به في القرآن قبل نزوله .

— ١٩ —

أولاً النفس

ان في القرآن آيات كثيرة جداً ذكرت فيها كلمة النفس في مواضع ومناسبات ودلالات متنوعة . فمنها ما جاء مرادفاً لكلمة شخص او فرد كما ترى في ما يلي :

١ — واتّقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ... البقرة ٤٨

٢ — واذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ... البقرة ٧٢

ومنها ماجاء مرادفاً لمعنى ذات الانسان وعينه وشخصه كما ترى في مايلي :

١ — قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ... الأعراف ١٨٨

٢ — قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فانما يضل عليها ... يونس ١٠٨

ومنها ماجاء بمعنى القوة الكامنة في الانسان التي تأمره بالعمل وخاصة بعمل السوء كي ترى في ما يلي :

١ ـ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ... المائدة ٣٠

٢ ـ قال بل سولت لكم أنفسكم امراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ... يوسف ١٨

٣ ـ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي... يوسف ٥٣

ومنها ماجاء بمعنى شخصية الانسان الباطنة كي ترى فيما يلي :

«تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب ... المائدة ١١٦

ومنها ما جاء بمعنى حياة الانسان كما ترى فيما يلي :

«إنما يريد الله أن يعذبهم في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ... التوبة ٨٥

ومنها ما جاء بمعنى القوة التي تكسب الخير والشر كما ترى فيما يلي :

١ ـ لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت... البقرة ٢٨٦

٢ ـ ولو ان لكل نفس ظلمت مافي الارض لافتدت به ... يونس ٥٤

ومنها ما جاء بمعنى القوة المعدة لتلقى الالهام كما ترى فيما يلي :

١ ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... السجدة ١٣

٢ ـ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ... الشمس ٧ ـ ٨

ومنها مايلهم انه بمعنى الضمير الذي يلوم صاحبه على الاعمال السيئة كما ترى فيما يلي :

« لاأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ... القيامة ١ ـ ٢

ومنها مايلهم انه يحمل دلالة التفريق بين النفس وصاحبها كأنهما شيئان متلازمان ولكن لكل منهما وجود خاص ، وكل منهما مستقل في ماهيته واثره عن الآخر كما ترى في مايلي :

١ ـ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ... البقرة ١٨٧

٢ ـ والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .... آل عمران ١٣٥

٣ ــ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون. الانعام ٢٤

٤ ــ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ... الاسراء ١٤

وفي احدى الآيات ذكرت الكلمة بمعنى الروح التي بها قوام الحياة والتي تنفصل عن الجسم فيكون الموت أو النوم (١) كما ترى فيها :

« الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. الزمر ٤٢

ونريد أن نقيد ان في بعض المعاني التي أشرنا اليها صنفة بعض التدخل والتوسع، غير أننا لم نر مندوحة عن هذا التصنيف لأننا رأينا في دلالات الآيات مايساعد عليه.

واذا كانت الآيات بجملتها وبعموم المعاني التي تدل عليها الكلمة لاتساعد على تصوير مافي ذهن العرب عن ماهية النفس تصويراً واضحاً وحاسماً وخاصة وقد جاءت بمعان كثيرة، فان الانسان الذي يتمعن في مدى الآيات روحاً ومضموناً على اختلاف ماانحتوته من معان ودلالات يلمس بوجه عام وحدة في الدلالة على أن النفس قوة متصلة بالجسم ولكنها شيء آخر عنه ؛ وما جاء في معاني « القوة الملهمة والقوة الملهَمة والقوة الداخلية والقوة الكامنة والقوة اللوامة والقوة الأمارة والقوة الكاسبة وما جاء يحمل الدلالة على التفريق بين الناس وصاحبها ، وما جاء في معنى الروح وانفصالها عن الجسم وحصول الموت والنوم بهذا الانفصال يقوي ذلك الملموس ، ويسوغ القول بأن ذهنية العرب قبل البعثة عن « النفس » ودلالتها ذهنية الذي يفرق بين النفس وصاحبها ، والذي يعتبر ان النفس قوة خاصة في الانسان ومستقلة عن جسمه المادي؛ تلهمه وتزين له عمله ، وانها قد تكون دافعة الى الخير كما تكون دافعة الى الشر ، وانها هي التي تتقبل الالهام ، وتسير صاحبها حسب استعداده ، ثم إنها هي التي يكون بها قوام الحياة الانسانية وقوام الكيان والادراك الانساني .

ونذبه على ان هذا الشرح انما هو في الحقيقة مايتبادر انه مافي ذهن العرب عن وجود النفس وأثرها ، وليس هو بسبيل وصف ماهيتها ؛ فانه ليس في القرآن مايساعد على معرفة مدى ماهيتها في ذهنهم .

(١) اقرأ تفسير الآية في الطبرسي مثلاً .

وثانياً الروح :

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكرت فيها كلمة « الروح » باساليب ومواضيع متنوعة .

منها ماجاء في تسمية او وصف جبريل عظيم الملائكة على ماذهب اليه جمهور المفسرين كما ترى في ما يلي :

١ — « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا . النحل ١٠٢

٢ — فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت إني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً ... مريم ١٧ - ١٩

٣ — نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ...

الشعراء ١٩٢ — ١٩٣

٤ — يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . النبأ ٣٨

ومنها ما جاء بمعنى أمر الله ووحيه كما ترى في ما يلي :

١ — ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ... النحل ٢

٢ — رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ... غافر ١٥

٣ — وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ... الشورى ٥٢

ومنها ما جاء بمعنى نصر الله وتأييده كما ترى فيما يلي :

اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ... المجادلة ٢٢

ومنها ما جاء بمعنى نسمة الحياة التي بثها الله في الاحياء وبثها الله في آدم ومريم كما ترى في ما يلي :

١ ـ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ... الحجر ٢٩

٢ ـ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها اية للعالمين ... الانبياء ٩١

ومنها ما جاء اجابة على سؤال اورد على النبي (ص) عن ماهية الروح كما ترى في ما يلي :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . الاسراء ٨٥

والآيات الواردة في الفقرتين الاولتين ليست كما هو واضح في صدد الروح التي جرى العرف على انها هي التي تحقق بها حياة الانسان او الاحياء ، وانما هي في صدد الدلالة على ملك الله ووحيه ؛ وكلاهما من باب واحد ؛ وبناء على ما قررناه في مناسبة سابقة في صدد تعبير « روح القدس » يصح ان نقول هنا مع كون هذا التعبير مترجماً عن النصرانية فان العرب في بيئة النبي (ص) قبل البعثة كانوا على الارجح يفهمون الدلالات التي جاءت في الآيات .

كذلك آية المجادلة الواردة في الفقرة الثالثة فانها ليست في صدد روح الحياة ؛ ونرجح ان العرب كانوا كذلك يفهمون الدلالة التي جاءت فيها

اما الآيات الواردة في الفقرتين الرابعة والخامسة فهي التي في صدد روح الحياة التي هي جوهر البحث هنا . ومن الحق ان نقول إنه ليس فيها ما يساعد على فهم ما في ذهن العرب عن هذه الروح ؛ غير أن آية الاسراء بنوع خاص تصور حيرتهم التي شاركهم فيها غيرهم دائماً في هذه «الروح» اولاً ، وتساعد على القول إنها كانت من الامور التي يسلمون بوجودها على حيرة من أمرها وصفتها وماهيتها ثانياً . ولعل آيتي الحجر والانبياء قد تلهمان ان العرب كانوا يفهمون دلالة «غير المادية» في الكلمة ، وانها تطرأ على الجسم المادي الذي لا حياة فيه فتدب فيه الحياة ؛ وفي آية الزمر (٤٣) التي نقلناها في بحث النفس والتي جاءت فيها كلمة النفس مقابل معنى الروح التي بها قوام الحياة واليقظة قرينة مؤيدة بشكل ما ؛ حيث تضمنت معنى انفصال الروح

عن الجسد وعودتها اليه فيكون من الانفصال الموت والنوم ومن الاتصال الحياة واليقظة . وليس في هذا على كل حال صلة بالماهية التي حار بها العرب وصور سؤالهم عنها حيرتهم .

هذا من جهة دلالة الكلمة ومافي ذهن العرب عنها. غير ان هناك نقطة جديرة بالبحث وهي ما اذا كان العرب تصوروا للروح خلوداً بعد تسليمهم بوجودها واثرها وصلتها بالحياة والموت واليقظة والنوم ، واستقلالها عن الجسم وعدم ماديتها .

ومن الحق ان نقول انه ليس في القرآن ما يساعد على الأجابة ايجاباً على هذا السؤال ، ونذكر هنا بما اوردناه في الفصل الخامس من هذا الباب من نصوص كثيرة ونبهنا على ما في القرآن من نصوص كثيرة اخرى تحكي عنهم او بالأحرى عن اكثريتهم العظمى استنكار عقيدة البعث بعد الموت ، وعدم اساغتهم ذلك في حال . وقد تحفظنا فقلنا اكثريتهم العظمى لأننا نرجح ان فريقاً منهم وخاصة فئة الموحدين واتباع ملة ابراهيم ، والمستنيرين الذين احتكوا بالكتابيين كانوا يعتقدون بخلود الروح على النحو الذي كان عند الكتابيين ، وان اندماج الفريق المستنير المناوء للنبي (ص) في الاستنكار وعدم الاساغة انما كان لأن العقيدة عند الكتابيين لم تكن واضحة ، وما جاء من اوصاف الحياة الاخروية المفصلة في القرآن قد جاء جديداً عليهم انفسهم .

على ان من الحق كذلك ان نقول انه من غير المعقول ان يكون العرب ونعني اكثريتهم العظمى تلك قد سلموا واقروا بعدم مادية الروح ، وبأثرها السلبي والايجابي في الحياة ، وبأنفصالها واتصالها المتكررين بالجسد ولا يكونون قد تصوروا خلودها بشكل ما . واذا كان ليس في القرآن ما يمكن ان يساعد على هذا بصراحة فأن في الاخبار والروايات الكثيرة المتنوعة ما يمكن الاستئناس به على ذلك . فلقد كانوا يشيعون موتاهم الى المقابر ويزورون قبورهم ويرشون ترابها بالماء ويجلسون عندها ، ويناجون موتاهم ، ويرونهم في المنام فتحدث رؤياهم في نفوسهم الاضطراب والحيرة ، ويعقرون النياق عند قبورهم يوم إعدادها لركوبهم حينما تعود اليهم

ارواحهم ، ويهتمون أعظم اهتمام لأخذ ثار قتلاهم واسكات هاماتهم التي تظل تصرخ طالبة السقيا مادام دم أصحابها مطلولاً الى غير ذلك من الصور والاخبار المنثورة في الكتب العربية على اختلافها ، ولا تجوز اذاقلنا مهما كانت المآخذ على الروايات صحيحة من حيث تدوينها وظروفها ووقائعها ـ إنها ترديد لما كانت عليه الحال ، وبصحة كونها قرائن على وجود عقيدة خلود الروح بشكل من الاشكال وعدم فنائها وانحلالها أسوة بالجسد في اذهان العرب بوجه عام قبل البعثة .

فهرست الكتاب

الصحيفة		
٥	١٤	**المقدمة** بواعث تأليف الكتاب وظروفه وأسلوبه .
١٥	١٢٦	**الباب الأول** في الاقليم والسكان ويتألف من ثلاثة فصول
١٦	٥٠	الفصل الأول في الحجاز وأهله : الاقليم ـ المدن ـ البدو ـ الجنس العربي وشموله ـ اللغة القرآنية واللغة العربية وشمولها .
٥١	٩٤	الفصل الثاني في الحركة الاقتصادية والمعايش النشاط التجاري في المدن الحجازية ـ النشاط الزراعي ـ النشاط الصناعي ـ معايش العرب المتنوعة .
٩٥	١٢٦	الفصل الثالث في الجاليات الأجنبية : نصارى اعاجم في مكة ـ اسرائيليون في مكة ـ اسرائيليو المدينة وحياتهم وأخلاقهم وأثرهم ـ نصارى اعاجم في المدينة .
١٢٧	٢٣٦	**الباب الثاني** في الحياة الاجتماعية ويتألف من أربعة فصول
١٢٨	١٥٦	الفصل الأول في حياة الأسرة . الرجل والمرأة ـ عادات وتقاليد عائلية ـ عادات متنوعة أخرى .
١٥٧	١٨٠	الفصل الثاني في العصبية الاجتماعية : عصبية الأقارب والأرحام ـ عصبية القبيلة ـ عصبية التحالف ـ عصبية الولاء ـ عصبية الجوار ـ عصبية التقاليد
١٨١	٢١٤	الفصل الثالث في الحج والأشهر الحرم :

		الصحيفة
		الحج والكعبة ـ علاقاتها بابراهيم (ص) في التقاليد العربية ـ اثرهما في حياة مكة واهلها ـ عادات وتقاليد متنوعة متصلة بهما. الأشهر الحرم ـ خطورتها في حياة العرب .
٢١٥	٢٣٦	الفصل الرابع في نظام الحكم والطبقات : السلطات في مكة والمدن الأخرى ـ في البادية ـ القضاء في الحجاز وعادات متنوعة له ـ وجود تفاوت طبقي في الحجاز ـ الرق والرقيق .
٢٣٧	٣١٦	الباب الثالث في الحياة العقلية ويتألف من ثلاثة فصول .
٢٣٨	٢٦٤	الفصل الأول في اللغة واللغة القرآنية ومدى دلالتها على قوى العرب العقلية تمثيل اللغة القرآنية لعصر النبي وبيئته ـ فنون اللغة المتنوعة ومداها .
٢٦٥	٣٠٠	الفصل الثاني في العلوم والمعارف ووسائلها : القراءة والكتابة في الحجاز ـ اللغات الأجنبية ـ المعارف التاريخية والجغرافية والفلكية والزراعية والحسابية ـ الكهانة والسحر ودلالتها ـ الحكمة ومفهومها .
٣٠١	٣١٦	الفصل الثالث في مواقف المشاقة ودلالتها على قوى العرب العقلية . المشاقة في العهد المكي وصور قرآنية عنها ـ في العهد المدني وصور قرآنية عنها .
٣١٧		الباب الرابع في العقائد والأديان ويتألف من ثمانية فصول
٣١٩	٣٣٨	الفصل الأول في الشرك : الشرك عقيدة العرب العامة ـ انواع الشرك والشركاء ـ

		الصحيفة
		مدى ودلالة تسمية الشركاء ترتيبهم ـ ظاهرة التطور الديني من خلال الشرك .
٣٣٩	٣٥٣	الفصل الثاني في المعبودات المادية : مدى ودلالات ألفاظ الأوثان والأصنام والتماثيل والأنصاب ـ الأسماء الواردة في القرآن لأصنام العرب .
٣٥٤	٣٧٠	الفصل الثالث في الملائكة وعقائد العرب فيهم : حفاوة القرآن بالملائكة ـ ماهيتهم في أذهان العرب ـ عقائد العرب المتنوعة فيهم ـ العرب والتجريد في العقيدة ـ ظاهرة خطوة تطورية دينية . قصة سجود الملائكة لآدم ومداها .
٣٧١	٣٩٥	الفصل الرابع في الجن وعقائد العرب فيهم : عقائد العرب المتنوعة في الجن ومبعثها ـ أفكارهم ومعارفهم عنهم ـ إبليس والشيطان ـ قصة إبليس في القرآن .
٣٩٦	٤١٨	الفصل الخامس في عقيدة العرب بالله وتمنيهم بعثة نبي فيهم . اعتراف العرب بالله وخطورته ودلالته على التطور الديني ـ تمني العرب بعثة نبي ودلالتها وخطورتها ـ تحليلات لتناقض العرب بين هذا وموقفهم من النبي .
٤١٩	٤٣٤	الفصل السادس في الحنفاء والصابئين واتباع ملة ابراهيم : الصابئون ـ الحنفاء والحنيف ـ حفاوة القرآن بملة ابراهيم ودلالتها ـ استطراد لنشأة النبي قبل بعثته ـ صورة شاملة لتطور الحركة الدينية العربية قبيل البعثة .
٤٣٥	٤٦٩	الفصل السابع في اليهودية والنصرانية وانتشارهما وأثرهما : اليهودية في عرب الحجاز واليمن ـ أثرها ـ دلالة مواقف اليهود الحجاجية ـ مظاهر أخلاقية ودينية يهودية ـ النصرانية في

الصحيفة

عرب الحجاز ـ في غيرهم ـ أثرها ـ مظاهر اخلاقية ودينية نصرانية ـ الروح القدس ـ التوراة والانجيل .

٤٧٠ ٥٠٣ الفصل الثامن في الطقوس والعادات والافكار الدينية المتنوعة عبادة الشمس والقمر والكواكب ـ عبادة النار ـ الصلاة ـ الصيام ـ الاعتكاف ـ رمضان ـ الجمعة ـ الاضاحي الدينية ـ الانعام ـ الهواجس النفسية المصبوغة بالصبغة الدينية ـ النفس والروح .